النكبة العلمية

للمسلمين عرباً وعجماً

دكتور

أحمد محمد أحمد حشيش

أستاذ بكلية حقوق طنطا
ووكيلها سابقاً

٢٠١٣

دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾(١)

«صدق الله العظيم»

---

(١) آية ٥٣/الإسراء.

مقدمة

١- عنوان هذا المقال هو: «**النكبة العلمية للمسلمين**». وهو يخلو تماماً من أى إسراف، فى تشخيص حالة المسلمين العلمية العامة تجاه القرآن والسنة، بلفظ «نكبة»، ولو كان هذا اللفظ صادماً للمسلمين عرباً وعجماً، أى مُفجعاً ومُوجعاً لهم.

فالحقيقة أنه أقل الألفاظ شدة فى تشخيص تلك الحالة العامة، التى هى ذاتها، قد شُخصت قرآنياً بلفظ «الهجر» بمعنى الهجر للقرآن وبالتالى الهجر للسنة، مصداقاً لقوله تعالى على لسان خاتم الرسل: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾(١).

ولولا أن تلك الحالة قد بلغت حد النكبة بالنسبة للمسلمين، وحد الهجر بالنسبة للقرآن والسنة، ما كان للمقال عنوانه على النحو المتقدم ذكره، ولا كانت له ثمة ضرورة علمية، ولا كانت له غايتة العامة، التى هى «نصيحة عامة».

فهى نصيحة فى شأن من الشئون العامة للمسلمين، هو شأنهم العلمى العام. ومن ثم، فهى من النصائح المتعلقة يقيناً بشئونهم العامة، والتى هى واجبة على الدوام. ووجوبها الدائم، مقنن قانوناً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**)(٢)، وقوله أيضاً: (**الدال على الخير كفاعله**)(٣).

---

(١) ٣٠/ الفرقان.

(٢-٣) الألبانى: صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير، المكتب الإسلامى – ط٣ – بيروت، ١٩٨٨، ص٤٦٠ رقم ٢٣٢٤، ص٦٤٠ رقم ٣٣٩٩.

إذن، هذا المقال، لا فيه إسراف فى عنوانه أو فى تشخيصه الموضوعى، ولا له طبيعة انتقادية أياً كانت، ولا فيه أى انتقاد لأى أحد من المسلمين عرباً وعجماً، عامتهم وخاصتهم ونخبهم، قدامى ومحدثين، أولئك الذين نكن لهم كل احترام وتقدير.

لكن هؤلاء، وإن لم يعرفوا شيئاً بعد عن كيفية وصولهم إلى حالة النكبة العلمية، إنما لابد أنهم شعروا بحالة إغترابهم عن القرآن والسنة، حتى أنهم أصبحوا لا يمسكون إلا بأهداب الإسلام، ولا يمسكونها إلا بأطراف أناملهم وأصوات حناجرهم.

٢- وقارئ المقال، ليس له إذن أن يستكثر هذا التشخيص الموضوعى. إنما يظل له أن يُراجعه، لكن ليس له أن يُراجعه إلا وفقا لمعيار علمى موضوعى.

أى يراجعه وفق «خريطة» التعليم والتعلم فى «أكاديمية الأميين للقانون»، التى نشأت نشأة إلهية فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى (٦١٠م). وكان المعلم الوحيد فيها آنذاك هو خاتم الرسل.

ويُراجعه وفق تسلسل موضوعى للأفكار: أ- فهل تعلم المسلمون «كل» ما يجب عليهم تعلمه من القرآن والسنة، أم لا؟

ولِمَ لمْ يَسْعَ المسلمون جدياً لتعلم ما لم يتعلموه منهما بعد، رغم أنه أضعاف أضعاف ما تعلموه بالفعل، بدلاً من الاختباء خلف مقولات يرددونها منذ العصور الوسطى حتى الآن مثل: «القرآن لا تنفد عجائبه» و «الله أعلم ورسوله» و «علمه عند الله» .... إلخ.

إنها مقولات حق يراد بها باطل. فالله ورسوله أعلم ولا ريب، لكن القرآن بأيديهم، وليس كتاب فوازير وأحاجى، ولا كتاب طلاسم.

ب – وهل ما تعلموه منهما على ضآلته حتى الآن، تركوه على حاله، أم اختلفوا فيه اختلافاً عميقاً وواسعاً، باسم الاجتهاد، وصارت محصلة كافة «المذاهب» معاً باطلة بنسبة $\frac{72}{73}$ وصحتها لا تتجاوز $\frac{1}{73}$ وذلك وفق الحديث المشهور لخاتم الرسل؟

جـ – وهل «طريقتهم» هذه فى تعليم وتعلم القرآن والسنة، هى الأفضل أو هى المثل أو هى الأدنى من نظيرتها، التى كانت قديماً فى أكاديمية الأميين للقانون، والتى بها تعلم الطلاب آنذاك كل ما يجب تعلمه من القرآن والسنة؟

إذن، هناك من علم المسلمين الأوائل فى أكاديميتهم الأولى، ما هو منسى ومهجور تماماً حتى الآن. وأيضاً هناك من علمهم ما هو معلوم ومختلف فيه اختلافاً واجتهاداً فادح البطلان. وهناك من علمهم ما هو مجهول وغامض حتى الآن.

فهل يكفى – بعد ذلك – أن يستمر المسلمون فى قراءة القرآن، ولو قراءة صحيحة، دون أن يتعلموا غالبية ما فيه من علم، أم أن قراءتهم فى هذه الحالة هى قراءة غير صادقة مصداقاً لقول خاتم الرسل: (أكثر منافقى أمتى قراؤها)(١)؟

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٢٦٣ رقم ١٢٠٣.

وهل تشفع للدعاة ديكوراتهم من العمائم والقفاطين واللحى الطويلة وتزيين خطبهم بآيات من القرآن، أم هم بدورهم غير صادقين فى عملهم مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون)**([1])، وقوله: **(إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان)**([2])؟

٣- والمقال الراهن لا يُشخص «الداء» إجمالاً فحسب، إنما يُشخص أيضاً عناصره الثلاثة، التى تغلغلت داخل المسلمين، وداخل دور تعليمهم، على امتداد أجيال وأجيال مضت بعد أكاديمية الأميين للقانون، وبالتالى فإن محتويات هذا المقال تتوزع على المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول: علم المسلمين المنسى والمهجور.

المطلب الثانى: علم المسلمين المعلوم والمختلف فيه.

المطلب الثالث: علم المسلمون المجهول والغامض.

([1-2]) الألبانى: السابق، ص٣٢٢ رقم ١٥٥١، ص ٣٢٣ رقم ١٥٥٤.

المطلب الأول

علم المسلمـــــــين

المنسى والمهجور

٤- وضع المشكلة :

إذا كان الاعتراف بالحق فضيلة، فلابد أن تأخذ الشجاعة الأدبية مأخذها من المسلمين، فيقروا بأنهم نسوا أن يتخذوا من دراسة القرآن الأولى فى أكاديمية الأميين، «نموذجاً» يُحتذى به على الدوام فى دور تعليمهم للقرآن والسنة.

فدراسة (تعليم وتعلم) القرآن حالياً، هى دراسة بلا أصول، وبالتالى فلا هم عرفوا «أصول» دراسة القرآن، ولا هم عرفوا – حتى – أصول حضارة المسلمين العلمية، حتى الآن، وهو الأمر الذى وضعهم فى «فراغ علمى» كبير، وجعلهم ينبهرون – بعد ذلك – بما وفد إليهم من اللاعلم.

وهذا هو السبب العام للغفلة، التى ألمت بالمسلمين، وأقعدتهم عن تعلم كل ما يجب عليه تعلمه من القرآن والسنة، وبالتالى فإن محتويات المطلب الراهن تتوزع على ثلاثة فروع، كما يلى:

الفرع الأول : أصول دراسة القرآن.

الفرع الثانى: أصول حضارة المسلمين.

الفرع الثالث: دراسة للقرآن بلا أصول.

الفرع الأول

أصول دراسة القرآن

٥- التعليم القرآنى الأول :

بدأت المرحلة الأخيرة والكبرى من حضارة المسلمين العلمية، مع نهاية العقد الأول (٦١٠م) من القرن السابع الميلادى، بدراسة القرآن الكريم، أى تعليمه وتعلمه، فى «أكاديمية الأميين للقانون».

وهى أكاديمية نشأت نشأة إلهية، لتعليم وتعلم القرآن لأول مرة. وكان المعلم الوحيد فيها هو خاتم الرسل، الذى كان يُعلم القرآن تلاوة وكتاباً وحكمة لطلاب تلك الأكاديمية، مصداقاً لقوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾(١)، وقول خاتم الرسل: (**.... إنما العلم بالتعلم**)(٢)، وقوله: (**.... إنما بعثنى معلماً ميسراً**)(٣).

٦- نوعية وجدية التعليم القرآنى:

وكان انتشار هذا التعلم بين أقصى عدد من الطلاب، أمراً ضرورياً للغاية آنذاك، وبالتالى استمرت هذه الأكاديمية قائمة أكثر من عشرين عاماً (٦١٠-٦٣٢م).

---

(١) ٢/ الجمعة.

(٢-٣) الألبانى: السابق، ص ٤٦١ رقم ٢٣٢٨، ٣٧١، رقم ١٨٠٦.

وبقدر ما كان هذا الانتشار الشخصى ضرورياً آنذاك، بقدر ما كان الأهم هو نوعية التعليم وجدية التعلم معاً، لكيلا تنقلب وظيفة هذه الدراسة الخاصة رأساً على عقب، فيكون الأمر نكبة كما هو حاصل الآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة. قوم يُحسنون القيل، ويسيئون الفعل. يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية. لا يرجعون حتى يرتد على فوقه. هم شرار الخلق والخليقة. طوبى لمن قتلهم وقتلوه. يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شئ. من قاتلهم كان أولى بالله منهم. سيماهم التحليق**)(١).

٧- موضوع التعليم القرآنى :

وقد انعكس المبدأ السالف ذكره، على موضوع التعليم القرآنى، الذى لم يكن مجرد تعليم وتعلم للقرآن، إنما كان هذا الموضوع كالآتى:

١- كان تعليماً وتعلماً لـ «كل» القرآن، مصداقاً لقوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾(٢).

٢- وكان تعليماً وتعلماً لكل القرآن، تلاوة وكتاباً وحكمة، مصداقاً لقوله تعالى:﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا**

---

(١) الألبانى السابق – ص ٦٨٤ رقم ٣٦٦٨.

(٢) ٦٧/ المائدة.

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

٣- وكان تعليماً وتعلماً للقرآن وحده، على اعتبار أن هذا القرآن ليس كتاباً عادياً يُدرس دراسة عادية، إنما هو كتاب فريد ومُعجز للبشر الأرضى بنوعيه، مصداقاً لقوله تعالى:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٢).

٤- وكان تعليماً وتعلماً للقرآن وحده، دون سواه خاصة الشعر والأدب واللغة، وذلك بمراعاة ما يلى:

أ - أن القرآن، وإن كانت لأسلوبه حلاوة وطلاوة، لكنه ليس كتاب شعر، إنما هذا الأسلوب هو أسلوب القرآن فى الكلام إلى المخاطبين به، لكى يكون مُيسراً لهم.

ب - وأن القرآن، وإن كانت به قصص، لكنه ليس كتاب قصص أدبية، إنما بالقرآن قصص قرآنى له خصوصيته وطبيعته ودوره فى القرآن وبالنسبة للقرآن.

جـ - وأن القرآن، وإن كان باللغة العربية، لكنها هى لغة القرآن العربية، التى لا تخاطب الإنس وحده، إنما تخاطب البشر الأرضى بنوعيه من الإنس والجن، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ قُلْ أُوحِيَ

(١-٢) ١٥١/ البقرة، ٨٨/ الإسراء.

إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(١).

٨- خصوصية موضوع التعليم القرآنى :

القرآن، الذى هو موضوع التعليم والتعلم، له خصوصيته بالنسبة لدارسيه عامة وفرادى، وذلك من ثلاث زوايا، كما يلى:

أ - فهو ليس كتاباً مستحيل الفهم أو صعب الفهم أو متعذر الفهم، إنما العكس هو الصحيح، أى هو بطبعه مُيسر للفهم والذكر، مصداقاً لقوله تعالى فى أربع آيات قرآنية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٢).

ب - وهو مُيسر للفهم والذكر من جانب المخاطبين به عامة وفرادى، لأنه كتاب قانون، أى تقنين Code، وبالتالى فهو مُيسر لهؤلاء عامة وفرادى، لكيلا يحتاج أى واحد منهم لأى واحد منهم فى شأن فهم هذا التقنين، حتى فى مجال الفتوى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (استفت نفسك وإن أفتاك المفتون)(٣).

جـ - وهذا التقنين الإلهى، مكون من جزئين معاً، هما كالتالى:

(١-٢) ١-٢/ الجن، ١٧/ القمر وكذا ٢٢/القمر وكذا ٣٢/القمر وكذا٤٠/ القمر.

(٣) الألبانى: السابق، ص ٢٢٤، رقم ٩٤٨..

– **الكتاب القرآنى**، أى الدستور الإلهى، الذى لم يُفرط فى بيان أى شئ، إنما تولى بيان كل شئ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (١)، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

– **الحكمة القرآنية**، أى اللائحة التفصيلية لذاك الدستور، والتى تضمنت تفصيل كل شئ ورد بيانه فى هذا الدستور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ .... تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

٩- نظام تقييم الطلاب :

كان لأكاديمية الأميين نظامها فى تقييم طلابها، على حسب ما لدى الطالب من عطاء يعطيه لأمة المسلمين بعد تخرجه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (أرحم أمتى بأمتى أبو بكر. وأشدهم فى أمر الله عمر. وأصدقهم حياء عثمان. وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب. وأفرضهم زيد بن ثابت. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل. ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)(٤).

إذن أكاديمية الأميين قديماً، لم تكن كُتاباً من الكتاتيب الأهلية التى عهدناها، إنما كانت أكاديمية بالمعنى الدقيق، وبالتالى يجب أن يُحتذى بنمطها على الدوام فى دور تعليم وتعلم المسلمين.

(١-٣) ٣٨/ الأنعام، ٨٩/ النحل، ١١١/ يوسف.

(٤) الألبانى: السابق، ص ٢١٦، رقم ٨٩٥.

وهذه الأكاديمية، لم تكن أكاديمية عسكرية أو حربية أصلاً، إلا استثناء فى حالة الضرورة وللدفاع الشرعى عن وجودها، أى هى كانت فى الأصل أكاديمية لخدمة حضارة أمة المسلمين.

لذا كانت أكاديمية لتعليم وتعلم القرآن باعتباره القانون الإلهى، ولو كان طلابها من الأميين، وكان المعلم الوحيد فيها أمياً، إنما كانت تعرف دور القرآن بالنسبة للمخاطبين به، وبالتالى كانت تعرف دورها تماماً.

١٠- مقررات مستبعدة :

علم اللغة، لم يكن من المقررات الدراسية فى أكاديمية الأميين، رغم أن القرآن باللغة العربية. وسبب هذا الاستبعاد، ليس فقط أن المعلم والطلاب كانوا عرباً ويجيدون لغتهم العربية، إنما أيضاً أن القرآن مُيسر للفهم والذكر لغوياً، سواء للعرب القدامى أو للعرب المحدثين.

وكذلك «الشعر»، لم يكن من المقررات الدراسية فى أكاديمية الأميين. لأن القرآن ليس كتاب شعر، ولأن المعلم (خاتم الرسل) لم يتعلم الشعر، ولم يكن جائزاً له أن يتعلمه، ولا كان جائزاً له - بالتالى - أن يُعلمه للطلاب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾(١).

على أن هذا الاستبعاد الرسمى، لم يمنع بعض طلاب الأكاديمية آنذاك، من تدبير طريقة خاصة بتعلمهم، ولو كانت بدائية وغير

---

(١) ٦٩/ يس.

مقبولة أكاديمياً، ألا وهى «ترجمة» لغة القرآن العربية إلى لغة عربية أبسط منها، بالاستعانة بأبيات الشعر.

لكن هذه الطريقة الطلابية البدائية، لم تكن ضمن مقررات تعليمهم وتعلمهم فى الأكاديمية، إنما هى مجرد جهد شخصى طلابى، جانبى وخارجى، وبالتالى لم يكن جهدهم هذا محل اعتبار عند تقييم طلاب الأكاديمية على نحو ما تقدم ذكره.

والسبب العام وراء هذا الاستبعاد، هو أن القرآن ليس كتاب لغة أو كتاب أدب، إنما هو كتاب قانون إلهى، أى تقنين إلهى. والقانون ليس من فروع اللغة، ولا اللغة من فروع القانون.

١١- أفدح انحراف عن منهج الأكاديمية :

يتمثل هذا الانحراف فى الخطأ المنهجى، الذى وقع فيه اللغويون منذ قديم، وحتى الآن.

فانطلاقاً من فكرة أن القرآن باللغة العربية، وبالتالى فإن الإلمام بها لازم للإلمام بالقرآن من جانب الأعاجم على الأقل، فقد اجتهد المجتهدون فى «تنظير» اللغة العربية، ذلك التنظير الذى اشتهرت تسميته بـــ «علم اللغة العربية»، والذى تخصصت فيه «كليات اللغة العربية» و «أقسام اللغة العربية» بكليات أخرى، والذى صار له «مجمع اللغة العربية» .... وهكذا.

وكانت مقدمتهم وجيهة، وجهدهم محمود، لكن تنظيرهم قام على خطأ منهجى، مازال موجوداً حتى الآن، وبالتالى مازال اللغويون على هذا الخطأ، فلم يسألوا أنفسهم كما يلى:

١- أى لغة عربية تلك التى هى موضوع هذا التنظير (العلم) حتى الآن، أهى لغة القرآن العربية، أم لغة عربية أقل من لغة القرآن؟

٢- كم «عدد» اللغات العربية فى القرآن، إذا كان الخطاب القرآنى ليس خطاباً للبشر الطينى «الإنسان» وحده، إنما هو خطاب للبشر الأرضى بنوعيه من الإنس والجن على الأقل؟

٣- كم «عدد» لغات الإنسان العربية فى القرآن، إذا كان الله تعالى يُبدئ الخلق ويُعيده، أى أن لكل خلق بداية وإعادة، حتى خلق لغة الإنسان العربية؟

٤- من أول من تلقى لغة الإنسان العربية «غير المبينة» من ربه، إذا كان الثابت فى السنة أن إسماعيل هو أول من تلقى مباشرة من ربه لغة الإنسان العربية «المبينة»؟

٥- ما هو إذن مفهوم اللغة فى القرآن، إذا كان مفهومها لدى اللغويين فى مقدمة «علم النحو» هو مفهوم خاطئ ومتناقض؟. فهم يقولون أن اللغة كلمات: إما أسماء وإما أفعال وإما حروف، بينما الفعل فعل وليس كلمة، والكلمة كلمة وليست فعلاً، وبالتالى فالأفعال بذاتها ليست كلمات، ولا هى - إذن - لغة. وأيضاً الحرف حرف وليس كلمة كاملة، والكلمة كلمة وليست مجرد حرف، وبالتالى فالحروف بذاتها ليست كلمات، ولا هى - إذن - لغة.

٦- وما هى لغة القرآن العربية، إن لم تكن لغة البشر بأنواعه الثلاثة، أى لغة البشر بوجه عام، ولغتهم فى الدنيا و - حتى - فى

أ – فقيمتها منعدمة علمياً، لكونها تتناقض مع طبيعة القرآن القانونية. فهو كله – كتاباً وحكمة – قانون إلهى. ودراسة القانون ليست بترجمته لغوياً، ولا بتفسيره بالشعر، إنما للقرآن طريقة خاصة ومخصصة لدراسته دراسة علمية، ولو لم يعرفها هؤلاء المفسرون.

ب – وهى ضارة بالمسلمين، إذ تصرف أنظارهم عن طبيعة القرآن القانونية، وتحولها إلى اعتبار القرآن بمثابة كتاب لغة بأسلوب شعرى، عسير الفهم بحيث لا يمكن التعامل معه إلا بطريق الحفظ والتخزين فى الذاكرة، بدون – حتى – فهمه الذى لا يمكن التعامل معه إلا بطريق وسيط لغوى يترجمه ويفسره ولو بأبيات الشعر.

جـ – ومصداقيتها معدومة فى كثير من الأحيان، ولو لم يُراجع أحد مصداقيتها بعد. فمثلاً، أجمعت التفاسير على أن من أُرسل إلى قوم نوح هو نوح وحده، وأن من أُرسل إلى قوم لوط هو لوط وحده، بينما العكس هو الصحيح قرآنياً، مصداقاً لقوله تعالى:﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(١)، وقوله: :﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

وعدم المصداقية فى هذه النقطة تبعه فراغ علمى فى نقاط أخرى حتى الآن: إذ لم يعرف المسلمون شيئاً بعد، عمن أُرسلوا إلى قوم نوح مثلاً؟. ومن منهم الذى بنى الكعبة لأول مرة، ثم بعدها بأربعين سنة، بنى بيت المقدس لأول مرة، مصداقاً لقول خاتم

(١-٢) ١٠٥/ الشعراء، ١٦٠/ الشعراء.

الرسل: (**أول مسجد وضع فى الأرض، المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، وبينهما أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصل فإن الفضل فيه**)([1]).

كما لم يعرف المسلمون شيأ بعد: عن ذاك النبى الذى هو من لم يبن البناء على سطح الأرض، إنما خط فى الرمل مكان الأساس، وحفر له فى الأرض، وبنى القواعد تحت الأرض، مصداقاً لقول خاتم الرسل عندما سئل عن أول من خط الرمل: (**كان نبى من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك**)([2]).

د – وموثوقيتها معدومة فى كثير من الأحيان، ولو لم يُراجَع أحد موثوقيتها بعد. فمثلاً، أجمعت التفاسير على أن «عين حمئة» التى غربت فيها الشمس أمام ناظرى ذى القرنين، هى عين ماء نتنه، أى أقرب إلى باكبورت مثلاً.

بينما الحقيقة أن للشمس، ليس لها عيناً فحسب، إنما لها أيضاً حاجبها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**إذا بدا حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تبرز، وإذا غاب حاجب الشمس، فأخروا الصلاة حتى تغيب**)([3]). والشمس تغرب فى عينها ذاتها، التى هى عين حمئه، أى عين حامية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**هلا تدرون أين تغرب هذه؟ تغرب فى عين حامية**)([4]).

([1-2]) الألبانى: السابق، ص ٥٠٤ رقم ٢٥٧٩، ص ٨٢٤، رقم ٤٤٦٢.

([3-4]) الألبانى: السابق، ص ١٣٤، رقم ٤١٢، ص ٥٩٧، رقم ٣١١٤.

هـ - وهى ملهية، تُلهى المسلمين عن دراسة القرآن بأنفسهم، دراسة مباشرة له، ودراسة علمية. فمثلاً ، أجمعت التفاسير على أن قصة موسى والخضر هى قصة من العجائب الغيبية، وبالتالى فإن الخضر لم يترك خلفه شرعاً ولا علماً. إذ كان علمه علماً «لدنيا»، أى علماً غيبياً، وحكراً عليه وحده.

وكأن هذه التفاسير تقول للمسلمين، أن فهم هذه القصة فوق طاقة قدراتكم، فلا تبحثوا فيها، ولا تبحثوا بالتالى عن علم الخضر، ولا - حتى - عن أكاديمية الخضر التأويلية، التى تعلم فيها موسى علم الرشد كما سماه هو، وعلم التأويل كما سماه الخضر نفسه.

وهى بهذا تُلهى المسلمين عن إدراك «العلم القرآنى» المخصص فى القرآن ذاته، لدراسته دراسة مباشرة، ودراسة علمية، وباعتباره كله - كتاباً وحكمة - القانون الإلهى، أى الدستور الإلهى ولائحته التفصيلية.

١٣- محصلة الانحرافين :

محصلة الانحرافين السالفين، بالنسبة للمسلمين، هى أنهم لم يفعلوا بعد ما أمرهم القرآن والسنة، بأن يفعلوه علمياً وعملياً.

فمثلاً، أليس قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾(١)، قاعدة مقننة قانوناً، أى قاعدة قانونية، مفادها علمياً: أن لكل خلق بداية وإعادة؟. وأليس على المسلمين عامة وفرادى تطبيق تلك القاعدة -

---

(١) ١٣/ البروج.

علمياً وعملياً – على كل خلق الله، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى الله)([1])؟

إذن لا يكفى أن يحفظوا قول الله، ولا يفهموا مضمونه. أو يفهموا مضمونه، ولا يرون بأنفسهم تطبيقه عملياً، على كل خلق وأى خلق. إنما عليهم عامة وفرادى أن يروا عملياً تطبيق هذا المضمون علمياً، مصداقاً لقوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾([2]).

فتطبيقها بأنفسهم علمياً وعملياً، لا يكلفهم إلا البحث عما لكل خلق من نشأتين متعاقبتين تاريخياً، أى البحث عن النشأة الأولى والنشأة الأخيرة لكل خلق ولأى خلق، وذلك واجب عليهم عامة وفرادى، مصداقاً لقوله تعالى:﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾([3]).

فإذا نسوا أن يفعلوا ذلك، وبالتالى لم ينشئوا «نظرية الخلق العلمية» فى القرآن، فإنهم لم يفعلوا بعد ما أمرهم القرآن والسنة بأن يفعلوه فى هذا الشأن علمياً وعملياً، ولم يدرسوا القرآن والسنة دراسة علمية بعد، كما هو حال المسلمين اليوم.

([1]) الألبانى: السابق، ص ٥٧٢، رقم ٢٩٧٦.

([2-3]) ١٩/العنكبوت، ٢٠/ العنكبوت.

وقاعدة لكل خلق بداية وإعادة، هى قاعدة مطلقة السريان، فتسرى – حتى – على خلق اللغة العربية، الذى له بداية قبل خلق الإنسان، وله إعادة عند خلق الإنسان، وبالتالى خلق لغة الإنسان العربية، التى لها بدورها بداية خلق وإعادة خلق، وذلك كله مقنن قانوناً فى القرآن، ولم يعرفه مطلقاً مُنظرى علم اللغة العربية الذى تتداوله دور التعليم الجامعى وقبل الجامعى حتى الآن، والذى موضوعه مجرد «واحدة» من اللغات العربية فى القرآن.

إذن لولا نسيان المسلمين أصول دراسة القرآن، كتاباً وحكمة، فى أكاديمية الأميين للقانون، لكان لديهم حالياً من هذا القرآن: «نظرية الخلق» و «نظرية البشر»([1]) و «نظرية اللغة العربية»([2]) و «نظرية البرلمان»([3]) و «نظرية الدستور الوضعى»([4]) و «نظرية المركز القانونى للرجل» و «نظرية المركز القانونى للمرأة» ... إلى آخره من النظريات، وذلك بدلاً من الكلام البدائى الذى يجرى تداوله حالياً بكثرة، والذى يتهم «الشريعة» بالعجز، والذى يثير الاشمئزاز لكثرة ما فيه من جهل وظلم للقرآن والسنة.

([1]) انظر: أحمد حشيش: نظرية البشر القانونية فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، دار النهضة العربية، ٢٠١٢.

([2-3]) انظر: أحمد حشيش: مركز الدولة والشعب والرئاسة والبرلمان واللغة العربية – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، دار النهضة العربية، ٢٠١٠.

([4]) انظر: أحمد حشيش: مشكلات النظام الدستورى المصرى فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، دار النهضة العربية، ٢٠١٢.

الفرع الثانى

نسيان

أصول حضارة المسلمين

١٤- المفهوم الاصطلاحى :

حضارة المسلمين العلمية موغلة فى القدم. فهى تبدأ من عصر آدم. ألم يكن آدم نبياً، ومسلماً؟. وهذه الحضارة العلمية الممتدة عبر التاريخ، لها أصول متراكمة، ومتنامية تباعاً. وأصولها موجودة فى القرآن.

وهى أصول علمية، قائمة بذاتها فى القرآن، أى تُكون علماً قرآنياً مستقلاً بذاته، هو «علم الحكمة» المعروف اختصاراً واصطلاحاً فى القرآن بـــ «الحكمة».

١٥- نسيان علم الحكمة :

ليس من المتصور مطلقاً أن ينسى المسلمون، لدرجة أن ينسوا علم الحكمة بالذات، وذلك لأسباب ثلاثة كما يلى:

١- كان علم الحكمة موضوعاً قائماً بذاته، من موضوعات التعليم والتعلم فى أكاديمية الأميين للقانون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ ... يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾(١).

---

(١) ٢/ الجمعة.

٢- وكان علم الحكمة من الموضوعات «الأساسية» للتعليم والتعلم فى تلك الأكاديمية، وبالتالى تكرر التركيز على هذه الحقيقة فى ثلاثة آيات، مصداقاً لقوله تعالى فى الآية السابقة (٢/الجمعة)، وقوله تعالى:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً ... يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾(١)، وقوله كذلك على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ... يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ....﴾(٢).

٣- فى تعلم علم الحكمة الخير الكثير، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٣).

وهذه الحقائق الثلاثة كفيلة لإقناع المسلمين عامة وفرادى، بأن علم الحكمة حقيقة علمية مقننة فى القرآن ذاته لمن شاء أن يبحث عنه جدياً. وأن أوائل المسلمين قد تلقوا بالفعل هذا العلم فى أكاديمية الأميين قديماً. وأن تعلم هؤلاء لعلم الحكمة فى أكاديميتهم كان فيه الخير الكثير لهم، وبالتالى فإن على المسلمين عامة وفرادى أن يسعوا للبحث عن هذا العلم، لا أن ينسوه كما هو حال المسلمين حالياً.

١٦- هجر المسلمين لعلم الحكمة :

أن يتعلم الأوائل علم الحكمة فى أكاديمية الأميين، ثم يهجره المسلمون بعد ذلك هجراً تاماً، هو مشهد غير معقول مطلقاً، أى لا

(١-٣) ١٥١/ البقرة، ١٢٩/ البقرة، ٢٦٩/ البقرة

يتخيل أى عاقل حدوثه على امتداد قرون، وذلك لأسباب ثلاثة، كما يلى.

١- أن علم الحكمة، جزء من القرآن، الذى يتكون من الكتاب والحكمة. وبهذا فالحكمة تمثل الفارق بين القرآن والكتاب، وبالتالى فلا هى الكتاب، ولا هى القرآن، إنما هى علم قائم بذاته موجود فى القرآن.

وبهذا، فهى ليست السنة المحمدية كما يذهب المفسرون اللغويون، بل هى – حتى – أسبق فى الوجود تاريخياً من تلك السنة، وبالتالى فقد أوتيها لقمان – مثلاً – قبل عصر النبوة مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ....﴾ (١). كما أوتيها داود قبل لقمان، مصداقاً لقوله تعالى بشأن داود:﴿... وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(٢).

ألم يدرك المسلمون عبر القرون الماضية، أن هجرهم لعلم الحكمة، هو هجر لجزء من القرآن، وأن تفاسير اللغويين للقرآن قد ألهتهم عن البحث عن هذا العلم؟

٢- وعلم الحكمة، هو الركن الأول الذى تقوم عليه الدعوة إلى سبيل الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ...﴾(٣). فإذا كان علم الحكمة منسياً ومهجورا – حتى – من جانب الدعاة، منذ قديم حتى الآن، فماذا عساه يكون إذن عملهم؟.

(١-٢) ١٢/ لقمان، ٢٠/ ص~.
(٣) ١٢٥/ النحل.

وإذا أصبحت الدعوة إلى سبيل الله عاجزة عن تأدية دورها القرآنى، فهل قامت المساجد بتأدية دورها القرآنى، الذى هو الدعوة إلى سبيل الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا...﴾(١)، أم أصبحت بدورها عاجزة عن تأدية دورها القرآنى؟

٣- وعلم الحكمة لازم على الدوام للكتاب الإلهى، وبالتالى ملازم له دائماً، منذ قديم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾ (٢).

وهو من ثم لازم على الدوام للكتاب القرآنى، وبالتالى ملازم له دائماً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾(٣).

وعلم الحكمة لازم للكتاب القرآنى، لأن الأول يمثل حكمة للأخير، وحكمة مصداقيته، وخلوه من أى افتراء فى الحديث، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٤).

وعلم الحكمة ملازم للكتاب القرآنى على الدوام، لأنه بمثابة تفصيل لهذا الكتاب، الذى لم يفرط فى بيان شئ، أياً كان، وبالتالى تضمن بيان كل شئ بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي

(١-٤) ١٨/ الجن، ٥٤/ النساء، ١١٣/ النساء، ١١١/ يوسف.

الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(١)، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

ومن ثم، فعلم الحكمة هو اللائحة التفصيلية لكل شئ ورد بيانه فى الكتاب القرآنى، مصداقاً لقوله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ .... تَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

إذن القصص القرآنى يقوم بدور «أصول» حضارة المسلمين، وحكمة الكتاب القرآنى، ولائحته التفصيلية، على السواء، وبالتالى فإن هذا القصص ليس قصصاً «للسير الشخصية» مطلقاً.

١٧- دور القصص القرآنى :

القصص القرآنى هو قصص «السير العلمية» التى قامت عليها حضارة المسلمين منذ قديم، ويقوم عليها - بالتالى - الكتاب القرآنى.

فهو قصص السير العلمية للأنبياء والمرسلين الذين قص القرآن قصصهم، ولغيرهم ممن ليسوا أنبياء ولا مرسلين، كالخضر ولقمان وذو القرنين. فهؤلاء وهؤلاء، هم «أولوا العلم»، أى أوائل من تلقوا العلوم Sciences مباشرة من ربهم، وتلقى كل واحد منهم علماً قائماً بذاته.

ومن ثم، كانوا أوائل من شهدوا بعد الملائكة والله بانفراده سبحانه بالألوهية وحده وقيامه تعالى بالقسط، مصداقاً لقوله سبحانه:

(١-٣) ٣٨/ الأنعام، ٨٩/ النحل، ١١١/ يوسف.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

وسيرتهم العلمية، هى تاريخ العلوم فرادى، وتاريخ العلم history of science بوجه عام. وهو العلم الذى مصدره الله تعالى، والذى قامت عليه الحضارة، فلا حضارة إلا حضارة المسلمين.

١٨- وأد دور القصص القرآنى :

اقتطع اللغويون القصص القرآنى من القرآن، اقتطاعاً، ونحوه جانباً، وعالجوه على استقلال عن باقى القرآن، وكأن هذا القصص منبت الصلة تماماً عن القرآن، ولا يتعلق إلا بالأنبياء والمرسلين، وأخبارهم الشخصية، وهو الأمر الذى ترتب عليه ما يلى:

١- عالجوه تحت مسمى «قصص الأنبياء» أو «قصص الأنبياء والمرسلين» على حسب الأحوال. وهذه التسمية ليست تسميته الاصطلاحية فى القرآن، وبالتالى فهى بطبعها خاطئة، خطأ مفضوحاً للعيان: فلا القرآن قص للأنبياء والمرسلين كلهم، إنما قص لبعضهم دون بعضهم. ولا القرآن قص لهذا البعض من الأنبياء والمرسلين وحدهم، دون غيرهم ممن ليسوا أنبياء ولا مرسلين، كالخضر ولقمان وذو القرنين. إنما القرآن قص لهؤلاء وهؤلاء على السواء.

---

(١) ١٨/ آل عمران.

وتصحيحاً لهذا الخطأ، قد يعمد بعض الشراح إلى إسقاط قصص من ليسوا أنبياء ولا مرسلين، كلهم أو بعضهم على حسب الأحوال. وهو بهذا يعالج الخطأ بخطأ آخر.

٢- وعالجوه، كأنه مجرد قصص «السير الشخصية» لمجموعة من الأفراد، لا يربطهم رابط، إلا رابط التتابع التاريخى ووحدة الدعوة إلى التوحيد والقرابة أحياناً.

ومن خرج من هؤلاء الأفراد عن سياق هذا الرابط، ظلت سيرتهم غامضة نوعاً ما. كالخضر الذى اعتبرت قصته وموسى من العجائب الغيبية حتى الآن. وذو القرنين الذى لم تُعرف هويته حتى الآن، ولا حكمة رحلته التى جاب بها المغارب والمشارق، ولا أين السد الذى أقامه، ولا القوم الذين قابلهم ووجد أن الله لم يجعل لهم من دون الشمس ستراً حتى الآن. وذو الكفل، الذى لم تعرف هويته بعد، ولم يُعرف بالتالى أى دور له حتى الآن. وكإدريس الذى عُرفت هويته، لكن لم يُعرف له أى دور حتى الآن، ولو عُرف من السُنة أنه فى السماء الرابعة.

٣- وعالجوه، كأنه مجرد قصص «أدبية» من لوازمها الإثارة والتشويق. وهما متوافران فى بعض القصص، كقصة نوح وإبراهيم ويوسف. أما غير ذلك من القصص، فلا مانع من أن يُضيف الشراح إليها إثارة وتشويقاً من خيالهم الأدبى. كقصة آدم مثلاً، فماذا يُفيد وجود أناس قبل آدم، أى «أوادم» كانوا سابقين على آدم؟. وماذا يفيد أن يكون آدم قد جاء من أب وأم وكـذا حـواء؟. وماذا يفيد أن

تكون حواء لم تخلق من ضلع آدم، إنما خلقت على استقلال، أى من الطين مباشرة مثله؟

وماذا يُفيد أن يكون لمريم «أخاً» يسمى هارون، وكان فاسقاً، وكانت اليهود تُعيرها به فى عبارة «يا أخت هارون»؟. وماذا يفيد أن يكون «آزر» ليس أبا لإبراهيم، إنما هو عمه، أو هو – حتى – ليس إسماً لإنسان، وإنما هو اسم لصنم؟ وماذا يُفيد لو أن ملكة سبأ كانت أمها من الجان، وكانت أرجلها أرجل ماعز مملوءة شعراً حين كشفت عن ساقيها. !!! إلى آخر هذا الهراء، الذى – فى شأنه – لا يستحى الشارح أن يقول: واختلف العلماء .... فأى علماء إذن؟

ومعلوم أن حشو قصص الأنبياء والمرسلين الشخصية، بالهراء الخيالى، هو صنعة يهودية أصلاً، يعج بها الكتاب المقدس.

٤- وآخر تداعيات هذه الطريقة فى معالجة القصص القرآنى، هى بدعة إتجاه الفنانين نحو استثمار هذا القصص اقتصادياً، بالتعامل معه سينمائياً، ولو من باب الدعوة إلى سبيل الله، وزيادة ثقافة المشاهدين.

وكاد هذا الاتجاه أن يطال قصة خاتم الرسل، بعد أن طال يوسف والمسيح وزكريا .... إلخ. وثار التساؤل مؤخراً، هل هناك ما يمنع من ذلك صراحة، أم أن المانع مجرد مانع أدبى فحسب؟. وهذه النقطة مطروحة حالياً، ويتهافت فيها المتهافتون كالعادة. وسيأتى تفصيلها لاحقاً فى هذا المقال، بالنسبة للفنون الغنائية جميعاً بما فيها التمثيل.

٥- وواضح تماماً، أنه لم يخطر ببال اللغويين بعد، أن القصص القرآنى قصص أصول الحضارة، وعلم الحكمة القرآنى، واللائحة التفصيلية للكتاب القرآنى.

وهم على امتداد قرون، لا بحثوا عن تلك الأصول وذاك العلم وتلك اللائحة، ولا تركوا غيرهم يبحث عنها، وبالتالى ظلوا يهيمنون على دراسة القرآن والقصص القرآنى. لا لشئ إلا لأن القرآن باللغة العربية، علماً بأن الله تعالى لم يجعل القرآن باللغة العربية لكى يعتلى اللغويون ظهره، أو يعلون فيه، أو يُهيمنون على دراسته بالخطأ.

فالقرآن ليس كتاب لغة. وقد جعله الله باللغة العربية، لكى يكون مُيسراً للمخاطبين به ولو لم يكونوا من اللغويين، وبالتالى لا يكون لأحد - بعد ذلك - أن يتذرع بصعوبة القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾(١).

الفرع الثالث

أثر

دراسة القرآن بدون أصول

١٩- الإفلاس الفكرى:

أعلن الإفلاس الفكرى للمسلمين، الذى أعلن بنفسه عن نفسه، والذى اشتهرت تسميته فى الأبيات بـــ «قفل باب الاجتهاد»، دون أن يُعرف حتى الآن: من قفله؟. وكيف قفله؟. ولماذا قفله؟. ومتى قفله؟. وإلى متى قفله؟.

---

(١) ٤٤/ فصلت.

وعادة، ما يؤرخ لهذا الإفلاس «منذ أواخر القرن الرابع الهجرى، وما زال مستمراً حتى الآن»(١).

لكنه تأريخ على أعلى تقدير. أما على أقل تقدير، فإن هذا الإفلاس موجود قبل القرن الرابع الهجرى، ومنذ احترف اللغويون ترجمة «كل» القرآن لغوياً، أى ترجمة كل لغة القرآن العربية، إلى لغة عربية أبسط، وبصرف النظر عما إذا كانت الألفاظ القرآنية أو العبارات القرآنية تحتاج بالفعل إلى ترجمة لغوية، أو لا تحتاج إلى تلك الترجمة أصلاً.

ويؤرخ لهذا الاحتراف منذ أقدم التفاسير المتداولة حالياً، أى منذ «جامع البيان فى تفسير القرآن. لابن جرير الطبرى. المتوفى سنة ٣١٠هـ»، أى منذ بداية القرن الرابع الهجرى، وبالتالى فإن الإفلاس الفكرى بدأ منذ بداية القرآن الرابع الهجرى.

فهو التاريخ، الذى فيه اعُتبرت الترجمة اللغوية الكلية للقرآن بمثابة «مادة علمية» لأول مرة، رغم أنها بطبعها ليست مادة علمية، وبالتالى لم تكن من بين مقررات دراسة القرآن فى أكاديمية الأميين للقانون.

بل – حتى – أصبحت هذه الترجمة اللغوية التفسيرية، على رأس مقررات دراسة القرآن، أى هى «المدخل العام» إلى دراسة (تعليم وتعلم) القرآن.

---

(١) صوفى حسن أبو طالب: تطبيق الشريعة الإسلامية فى البلاد العربية، دار النهضة العربية، ١٩٩٥، ط٤، ص ٢٣.

وهذا الوضع مستمر حتى الآن، وبالتالى مازال الإفلاس الفكرى للمسلمين مستمر حتى الآن، وذلك لما يلى:

١- نسى الناس، أن الترجمة اللغوية لكل القرآن، ليست مادة علمية أصلاً. فهى لم تكن من بين مقررات دراسة القرآن فى أكاديمية الأميين. وليست «كل» ألفاظ القرآن وعباراته فى حاجة إلى تلك الترجمة التفسيرية أصلاً.

٢- ونسى الناس، أن أكثرية ألفاظ القرآن وعباراته، ليست فى حاجة إلى تلك الترجمة اللغوية أو التفسير أصلاً، وبالتالى فإن الترجمة التفسيرية لكل القرآن، هى بطبعها إسراف لا موجب له، وضرره أكثر من نفعه، لما يترتب عليه من إيهام الناس بأن القرآن صعب على الفهم والذكر، بينما العكس هو الصحيح قرآنياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

٣- ولما تعددت التفاسير الكلية للقرآن، ظهر من يقارن بينها، ويدلى بدلوه فيما بينها من الاختلافات، فظهر ما يسمى تجوزاً بـ «علماء» التفسير، وذلك اسم على غير مسمى، بمراعاة ما يلى:

أ - فالمترجمون اللغويون ليسوا «علماء» أصلاً، خاصة المترجمون داخل اللغة الواحدة. فإذا كان هؤلاء علماء، فما بالنا بمن يترجمون من العربية إلى الأجنبية، أو العكس. فالمترجمون هم المترجمون وليس إلا.

---

(١) ١٧/ القمر.

ب – واختلاف المترجمين عن بعضهم على حسب القاموس اللغوى أو بيت الشعر الذى يستند إليه كل منهم فى ترجمته، ليس اختلافاً علمياً فى الأصل، إنما هو مجرد اختلاف فى الترجمة.

جـ – إذن ترجيح ترجمة على ترجمة، ليس علماً، ولا من يقوم به «عالم» بالمعنى الدقيق.

ولهذا فمقولة اختلف «علماء التفسير» حول كذا أو كذا، هى من قبيل الفخفخة، التى يفخفخون بها بعضهم فحسب، والتى لا يُعتد بها علمياً. فالعلم يحب التواضع، ويقوم على الحقيقة، وهم فى الحقيقة مترجمون، ومسرفون فى الترجمة.

٤– ولما توالد هؤلاء المترجمون، كثروا، فكابروا، وزعموا أن لهم مهنية أكثر من مجرد الترجمة. وهى مهنية علمية، وبالتالى لها اكتشافات كما يكتشف العلماء. وأنهم اكتشفوا «المجمل» و «المشكل» و «المشترك» فى الألفاظ. وكذا اكتشفوا «الناسخ» و «المنسوخ» فى الآيات، وأيضاً اكتشفوا «الإعجاز» فى القرآن.

فأوهموا الناس بأن الله تعالى ينزل آية قرآنية اليوم، وينسخها غداً أو بعد غد بآية قرآنية أخرى، بينما العكس هو الصحيح تماماً، أى أن القرآن منزه عن أن يناقض بعضه بعضاً.

وأوهموا الناس بأن إعجاز القرآن فى لغته، أكثر منه فى مضمونه، بينما العكس هو الصحيح تماماً، أى يجب البحث عن الإعجاز فى مضمون القرآن، الذى يخرج تماماً عن دائرة التخصص العلمى المعهودة للغويين.

وقد تناسى هؤلاء، أن الترجمة اللغوية (أى التفسير) بوجه عام، كانت موجودة منذ قديم، وقبل نزول القرآن، أى هى أسبق منه فى الوجود تاريخياً، وليست حكراً عليه وحده، أى ليست خاصة بالقرآن. وأن للقرآن علم مخصص خصيصاً لدراسته من حيث مضمونه، وهذا العلم موجود فى القرآن ذاته.

٢٠- مدى الإفلاس الفكرى :

ليت «الطبرى» و «البغوى» و «ابن كثير» و «السيوطى» وغيرهم، اقتصروا على ترجمة الألفاظ والعبارات الصعبة فى القرآن، وتركوا المسلمين يدرسون القرآن ذاته، دراسة مباشرة، ودراسة علمية، وهم يدعون ربهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١).

أليس على المسلمين عامة وفرادى أن يدبروا آياته ويتذكروا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(٢)؟

فلو كان المترجمون اقتصروا على ما هو صعب فى ألفاظ وعبارات القرآن، لكان خيراً لهم، وخيراً للمسلمين منذ قديم، بدلاً من نكبتهم العلمية، التى تستأهل التبكيت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٣).

(١-٣) ١١٤/ طه، ٢٩/ ص~ ، ٢٤/ محمد.

فقد نسى المسلمون أن يأخذوا عمن تعلموا فى أكاديمية الأميين للقانون، كيف كانوا يتدبرون القرآن.

فالقرآن لدى الأوائل، لم يكن كتاب لغة، إنما كان كتاب علم وعمل معاً، مصداقاً لقول ابن مسعود: «**كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن**»(١)، وقول آخر أيضاً: «**إنهم كانوا يستقرئون من النبى (ص). فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا ما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل معاً**»(٢).

٢١- كيف نتدبر القصص القرآنى ؟

لو كان أحد من المسلمين قال لهم: أن القصص القرآنى هو السير العلمية لآدم ونوح وذى القرنين والخضر وعيسى مثلاً، فهل كانت تمضى القرون الماضية دون أن يبحثوا عما هى «نظرية آدم العلمية» و «نظرية نوح العلمية» و «نظرية المسيح العلمية»؟

- فآدم خلق من طين، لكنه لم يكن حجراً، إنما كان نبياً، ومسلماً، وتلقى علماً من ربه، هو اللغة على الأقل. ولغته هى أم اللغات فى العالم حتى الآن، وأم العلوم قاطبة، وبالتالى شغل تاريخ آدم أجزاء فى سبع سور فى القرآن.

- وكيف تُنسب قاعدة الطفو، إلى أرشميدس، بينما نوح أول من تلقى قاعدة الطفو وقاعدة الغرق وقاعدة الجزء المغمور والجزء

---

(١) تفسير ابن جرير، جـ١، ص ٤٦.
(٢) تفسير ابن جرير، جـ٢، ص ٢٧.

الطافى من الشئ على الماء؟. وكيف يُنسب كشف الأرض الجديدة إلى «كولمبس»، الذى لم يكن فى مقدوره ذلك، لولا فكرة سفينة نوح، التى كانت مهيأة للإبحار – حتى – فى البحر العالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾(١)؟

– وكيف تُنسب إلى «كوبرنيكس»، نظرية عرفها قبله بثلاثة آلاف سنة ذو القرنين، الذى عرف قاعدة ثبات الشمس وضوئها، وكروية الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس، وبالتالى تعاقب الغروب والشروق بالنسبة للأرض وحدها، وتعاصرهما معاً بالنسبة للشمس؟

– وكيف ننسب إلى «عباس بن فرناس» العربى، فكرة الطائرة airplain ، ولا ننسبها إلى المسيح، الذى هبطت عليه هذه الفكرة من عند الله، فى الثلث الأول (٣٠-٣٣م) من العقد الرابع من القرن الأول الميلادى، فكان يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ولو لم تتحقق فكرة الطائرة عملاً إلا بعد المسيح بقرون طويلة؟

لكن يستأهل المسيح بهذا أن يتصدر مؤلفات الطيران، ومؤلفات القانون الجوى بكليات الحقوق مثلاً. ولم لا يستأهل هذا، إذ قبل الطائرة كان الإنسان يُحمل براً وبحراً (السفينة) فحسب، ولم يكن يحمل جواً، وبقى له أن يُحمل جواً، إسوة بغيره من البشر؟

---

(١) ٤٢/ هود .

فالبشر الطينى (الإنسان)، يختلف عن البشر النورانى (الملائكة) الذى له أجنحه على نحو ما هو ثابت فى القرآن، كما يختلف عن البشر النارى (الجن) الذى لصنف منه أجنحة يطير بها على نحو ما هو ثابت فى السنة. ومن ثم كان مستحيلاً أن يُحمل الإنسان جواً، بأن يطير بنفسه، وبالتالى كانت فكرة عباس بن فرناس مستحيلة التحقيق عملاً.

وكان على الإنسان أن يصنع طائرة بإذن الله، فتحمله جواً بإذن الله، فهبطت فكرة الطائرة على المسيح، ونفذت، وصار الإنسان يُحمل براً وبحراً وجواً بإذن الله.

وتلك كلها مجرد أمثلة على ما كان يجب أن يتسلسل فيه فكر المسلمين العلمى منذ قرون طويلة، ولا يتسع المقام لذكر أمثلة أخرى وكثيرة للغاية، على: كيف يجب على المسلمين أن يتدبروا القصص القرآنى؟

٢٢- كيف نتدبر خلق الله ؟

الله تعالى يُبدئ الخلق ويعيده، بمعنى أن لكل خلق بداية وإعادة، حتى خلق الشيطان والإنسان والكعبة وبيت المقدس والسموات والأرض مثلاً.

- فإذا كان إبليس بداية خلق الشيطانين، فمن عساه يكون الشيطان فى إعاده خلقه، ما لم يكن هو المسيخ الدجال، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**ما بعث الله من نبى إلا أنذر أمته الدجال. أنذره نوح والنبيون من بعده. وأنه يخرج فيكم. فما خفى عليكم من شأنه،**

فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور. وأنه أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبه طافية.....)([1])؟

- وإذا كان آدم بداية خلق الإنسانيين، فمن عساه يكون الإنسان فى إعادة خلقه، ما لم يكن هو المسيح عيسى بن مريم، مصداقاً لقوله تعالى:﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾([2])؟

- وإذا كان إبراهيم وإسماعيل قد أعادا الكعبة على نفس قواعدها الأولى، فمن عساه يكون الذى بناها فى بداية خلقها، ما لم يكن إدريس وذو الكفل، وهما من المرسلين الذين أرسلوا إلى قوم نوح قبل نوح؟

- وإذا كان سليمان بن داود قد أعاد بناء بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد، فمن عساه يكون الذى بناه فى بداية خلقه، ما لم يكن إدريس وذو الكفل، وقاما ببنائه بعد الكعبة بأربعين سنة وذلك على نحو ما هو ثابت فى السنة؟

- وكيف كان خلق السموات والأرض فى بدايته، وفى إعادته؟. وأين أصبح عرش الرحمن بعد خلقهما، وقد كان هذا العرش على الماء قبـل خلقهما؟ وكرسى الرحمن وسع فى بداية

([1]) الألبانى: السابق، ص ٩٧٧، رقم ٥٥٧٧.

([2]) ٥٩/ آل عمران.

خلقه السموات والأرض، فماذا وسع معهما هذا الكرسى فى إعادة خلقه؟

- والبشر فى إعادة خلقه هو البشر الطينى (الإنسان)، فمن عساه يكون البشر فى بداية خلقه ما لم يكن هو البشر غير الطينى؟.

- وعيسى إنسى يموت ويبعث من موته فى الحياة الدنيا، أى قبل يوم القيامة. لكنه هذا الإنسى فى إعادة خلقه. أما هذا الإنسى فى بداية خلقه، فهم اليهود الذين ماتوا وبعثوا فى حياتهم الدنيا، أى قبل يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى لهم:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

- والبلد الحرام في بداية خلقه هى مكة. أما فى إعادة خلقه فهى المدينة على نحو ما ثابت فى السنة.

- والقبلة، فى بداية خلقها شطر بيت المقدس، بينما هى فى إعادة خلقها شطر البيت العتيق.

- وخليل الرحمن، فى بداية خلقه هو إبراهيم عليه السلام على نحو ما هو ثابت فى القرآن. وفى إعادة خلقه هو خاتم الرسل على نحو ما هو ثابت فى السنة، وبالتالى لم يتخذ خاتم الرسل من أبى بكر خليلاً.

---

(١) ٥٥ - ٥٦/ البقرة.

وهذه كلها مجرد أمثلة، للكيفية التى يجب أن يتسلسل فيها الفكر العلمى عند تدبر خلق الله، ولا يتسع المقام لأمثلة أخرى كثيرة فى هذا الشأن، كان الواجب أن يتطرق فكر المسلمين إليها، وبناء «نظرية الخلق» و «نظرية البشر».

٢٣- تعليم وتعلم «اللاعلم» :

إعلان الإفلاس الفكرى للمسلمين، الذى سبقه فراغ علمى، هيأ - حتى - لاستقبال «اللاعلم» non-science. وهو نقيض العلم. ويخلو من النفع، وبالتالى يجب التعوذ بالله منه مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**اللهم أعوذ بك من علم لا ينفع ....**)([١]). وحالياً، قائمة اللاعلم([٢]) تضم الفلسفة([٣]) والفنون([٤]) والأيديولوجيا([٥])، وذلك على التفصيل التالى:

٢٤- ١- تسرب الفلسفة :

رغم أن الفلسفة هى الجدل للجدل([٦])، الذى لا يبدأ من حقيقة ثابتة([٧])، ولا ينتهى إلى حقيقة ثابتة([٨])، فإن هذه الفلسفة قد تسربت إلى دور تعليم المسلمين، منذ الثلث الأول من القرن التاسع الميلادى، حيث كانت الفلسفة ضمن مقررات «مدرسة المعرفة»([٩])، التى أنشأها المأمون فى بغداد آنذاك.

([١]) الألبانى: السابق، ص ٢٧٦، رقم ١٢٨٦.

([٢-٥]) صلاح قنصوة: فلسفة العلم، ٢٠٠٢ القاهرة، ص ٥٨.

([٦-٨]) عبد الحليم محمود: الفلسفة والحقيقية، ١٩٧٨ القاهرة، دار المعارف، ص١-١٥.

([٩]) الأنسكلوبيديا البريطانية، كتاب «العرب»، ١٩٧٨.

وحكم من يمارسونها عامة وفرادى، وبصرف النظر عما إذا كانت فلسفة إغريقية أو إسلامية، هو حكم مقنن قانوناً، مصداقا لقول خاتم الرسل: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل)(١). وقوله أيضاً: (إن أبغضكم إلىّ، وأبعدكم منى فى الآخرة، أسوأكم أخلاقاً، الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون)(٢).

وقد شرعوا بالفعل فى «هدم» نظام المركز القانونى للمرأة فى القرآن والسنة، باسم «فكرة» حقوق المرأة، والتى هى مشروع لمساواة المرأة بالرجل.

علماً بأنه لا يجوز مطلقاً مساواة الرجال بالنساء. ليس فقط للاختلاف بين الرجل والمرأة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾(٣). إنما أيضاً، لأن المرأة ليست بشراً طينياً سوياً. إنما هى بشر طينى غير سوى، بينما الرجل هو البشر الطينى السوى. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿.... فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾(٤). فقد تمثل لها رجلاً.

ومن ثم، لم تكن النساء فى درجة أعلى من الرجال، ولا – حتى – فى مثل درجتهم، إنما هن فى درجة أقل منهم، بينما الرجال فى درجة أعلى منهن، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾(٥). وأيضاً لم تكن القوامة للنساء، إنما هن تحت القوامة،

(١-٢) الألبانى: السابق، ص ٩٤٨ رقم ٥٦٣٣، ص ٣٢٠ رقم ١٥٣٥.

(٣-٥) ٣٦/ آل عمران، ١٧- ١٨/ مريم، ٢٢٨/ البقرة،

التى هى للرجال، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾(١).

كما لم تكن للنساء حقوق أكثر من حقوق الرجال، ولا – حتى – مثل حقوق الرجال، إنما لهن حقوق أقل. وأيضاً، لم تكن على النساء واجبات أكثر من واجبات الرجال، ولا – حتى – مثل واجبات الرجال، إنما عليهن واجبات أقل.

بل – حتى – لم تكن للنساء حقوق أكثر من واجباتهن، ولا أقل من واجباتهن. ولم تكن عليهن واجبات أكثر من حقوقهن، ولا أقل من حقوقهن. إنما فقط، لهن حقوق مثل واجباتهن، وعليهن واجبات مثل حقوقهن، وليس أكثر ولا أقل، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٢).

وبهذا، فلا يتساوى المركز القانونى للرجل (أى مجموع حقوقه وواجباته)، مع المركز القانونى للمرأة (أى مجموع حقوقها وواجباتها). بل إن النسبة بينهما، هى نسبة الضعف إلى الواحد الصحيح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾(٣)، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾(٤).

إذن، لكل من الرجل والمرأة مركزه القانونى الذى يتكون من مجموع حقوقه وواجباته، لكنهما ليسا فى مركز واحد. ومركز كل واحد منهما، ليس مركزاً سلبياً، إنما هو مركز إيجابى، وبالتالى على

(١-٤) ٣٤/ النساء، ٢٢٨/ البقرة، ١١/ النساء، ٢٢٨/ البقرة.

كل منهما أن يعمل فى إطار مركزه، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)، وقوله تعالى:﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾(٢). والعبرة ليست بالعمل أياً كان، إنما العبرة بالعمل الصالح، مصداقاً لقوله تعالى:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

٢٥-٢- تسرب الفنون :

وأيضاً تسربت الفنون إلى دور تعليم المسلمين. وفى البداية تسرب إليها الشعر والقصة والرسم، وذلك من باب تنمية المهارات. ثم تسرب إليها الغناء والموسيقى والباليه والتمثيل، وذلك من باب تنمية الهوايات.

ثم ظهرت دور تعليم مستقلة للغناء والموسيقى والتمثيل والرقص، وذلك من باب تنمية الملكات الفنية الغنائية بل توحشت تلك الفنون، فصارت صناعة قائمة بذاتها، وضخمة، وذلك من باب استثمار الإبداعات الغنائية اقتصادياً. ومطروح حالياً التساؤل عن حكمها فى القرآن والسنة؟ وإجابته، كما يلى:

١- النواح والغناء، توأمان، من عمل الشيطان أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى لإبليس عند طرده من الجنة قديماً: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ....﴾(٤)، وقول خاتم الرسل: كان إبليس أو

(١-٣) ١٠٥/ التوبة، ١٩٥/ آل عمران، ٩٧/ النحل.
(٤) ٦٤/ الإسراء.

من نوح وتغنى)([1]). فالنواح أو الغناء، هو «صوت»، ولو أن هذا الصوت يستفزز سامعيه، فيسلموا إليه وجدانهم لوعاً أو طرباً على حسب الأحوال.

وهما توأمان، مثلما الخمر والميسر توأمان من عمل الشيطان أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾([2]).

إذن، مثلما حكم الخمر والميسر هو التحريم ووجوب الاجتناب، فإن حكم النواح والغناء هو التحريم ووجوب الاجتناب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾([3])، وقول خاتم الرسل: (لم أنه عن البكاء، إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة مزمار شيطان ولعب، وصوت عند مصيبة خمش وجوه، وشق جيوب، ورنة شيطان وإنما هذه رحمة)([4]).

إذن حكم الغناء هو التحريم ووجوب الاجتناب، بصرف النظر عن طبيعة الأغنية، أى حتى لو كانت الأغنية فى إطراء أو فى مديح خاتم الرسل، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تطرونى ...)([5])، وقوله أيضاً: (إحثوا التراب فى وجوه المداحين)([6]).

([1]) مشار إليه فى مؤلف: جامعة الأزهر، بيان للناس، ١٩٩٤، ص ٢٧٠.

([2-3]) ٩٠/ المائدة، ٥/ يوسف.

([4-6]) الألبانى: السابق، ص ٩٢١ رقم ٥١٩٤، ص ١٢٢٩ رقم ٧٣٦٣، ص٩٩ رقم ١٨٦.

واستثناء، أجيز «لهو» النسوة مع بعضهن إنشاداً ولحناً، يوم العيد، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**). أو – حتى – فى يوم له حكم يوم العيد، كيوم وصول النبى للمدينة مهاجراً، مصداقاً لقوله: (**دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح**). أو كيوم زفاف، مصداقاً لقول خاتم الرسل لعائشة: (**أما كان معكم من لهو، فإن الأنصار يعجبهن اللهو**). وهذا الاستثناء، لا يجوز التوسع فيه، ولا القياس عليه، لأنه لا يحمل قاعدة عامة.

٢- والخمر أصل له توابعه، التى تملأ جدول المخدرات حالياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**الخمر أم الخبائث....**)(١)، بمعنى أن الخمر أصل بالنسبة لتوابعها، التى تأخذ – إذن – حكم الخمر من حيث التحريم ووجوب الاجتناب، عملاً بقاعدة: الفرع يتبع الأصل.

وكذا الغناء أصل له توابعه، التى هى الموسيقى والرقص والتمثيل. فهى قد ظهرت بعد الغناء تاريخياً، ولولا الغناء ما كانت الموسيقى أصلاً؛ إنما أتت لخدمته. ولولا الغناء والموسيقى، ما كان الرقص، الذى أتى لإتمام المنظومة فى دور اللهو. أما التمثيل، فهو آخرها ظهورها، وتوليفة مركبة منها جميعاً.

ومن ثم تأخذ هذه التوابع حكم الغناء، من حيث التحريم ووجوب الاجتناب، عملاً بقاعدة: الفرع يتبع الأصل.

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٦٣١ رقم ٣٣٤٤.

٣- وحكم الخمر وتوابعها، لا يسرى على تعاطيها فقط، إنما يسرى على تعاطيها وعلى التعامل فيها اقتصادياً بأى وجه من الوجوه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها)([1]).

وكذا حكم الغناء وتوابعه، لا يسرى على التعاطى فقط، إنما يسرى على تعاطيه وعلى التعامل فيه اقتصادياً بأى وجه من الوجوه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الله تعالى حرم القينة وثمنها وتعليمها)([2]).

وبهذا، فإن حكم الغناء وتوابعه والخمر وتوابعه، تعاطياً وتعاملاً، هو: التحريم ووجوب الاجتناب، وذلك بصرف النظر عما قد يكون فيها من منافع للناس، مصداقاً لقوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾([3]).

٤- إذن، التحريم ووجوب الاجتناب، هو حكم التمثيل عامة، وبصرف النظر عن طريقته (مسرحاً، سينما) وعن طبيعة موضوعه أو الأشخاص المراد تمثيل شخصياتهم.

([1]) الألبانى: السابق، ص ٩٠٧ رقم ٥٠٩١.

([2]) مؤلف جامعة الأزهر: الإشارة السابقة.

([3]) ٢١٩/ البقرة.

وفضلاً عن هذه القاعدة العامة، توجد قواعد خاصة تُحرم التمثيل وتوجب اجتنابه فى أحوال ثلاثة خاصة، هى:

أ - إذا كان تمثيلاً لموضوع ساخر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَومٍ .... وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء ....﴾(١).

ب - إذا كان تمثيلاً لشخص خاتم الرسل، الذى لا يجوز تمثيله مطلقاً، لا بواسطة إنسان أياً كان، ولا حتى - بواسطة الشيطان فى منام النائم ليراه واحد، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (من رآنى فإنى أنا هو. فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بى)(٢).

جـ - إذا كان تمثيلاً لشخص أى نبى أو رسول آخر، قياساً على خاتم الرسل، وعملاً بواجب عدم التمييز بين الرسل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(٣)، وقول خاتم الرسل: (لا تخيروا بين الأنبياء ....)(٤)، وقوله: (لا تخيرونى على موسى ....)(٥).

٢٦-٣- تسرب الإيديولوجيا :

تسربت الإيديولوجيا «الغربية» إلى دور تعليم المسلمين. وآخر الأفكار المتسربة، فكرة حقوق الإنسان. فيجرى تدريسها لطلاب الفرق الأولى بجامعات مصر.

---

(١) ١١/ الحجرات.
(٢) الألبانى: السابق، ص ١٠٧٣ رقم ٦٢٥٢.
(٣) ٢٨٥/ البقرة.
(٤-٥) الألبانى : السابق، ص١٢١٥ رقم ٧٢٥٧، ص ١٢١٥ رقم ٧٢٥٨.

وأبله، من يتصور إمكانية تطبيق حقوق الإنسان «الغربى» على نظيره المسلم. أو يتصور أن القرآن والسنة لم ينظما حقوق الإنسان المسلم، ولو لم ينشغل المسلمون بهذا النظام بعد.

فحقوق الإنسان أصل من أصول حضارة المسلمين، منذ عصر آدم، حينما كانت تلك الحقوق أربعة أساسية هى كما يلى:

١- حق الإنسان فى عدم الجوع، مصداقاً لقوله تعالى:﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ .... إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا ...﴾(١)

وهذا الحق يقابله واجب الإنسان بعدم الشبع، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وكُلُواْ ... وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(٢). وقول خاتم الرسل: (المؤمن يأكل فى معى واحد. والكافر يأكل فى سبعة أمعاء)(٣). وقوله أيضاً: (ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم أكلات - وفى رواية لقيمات - يقمن صلبه. فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه. وثلث لشرابه. وثلث لنفسه)(٤).

إذن مقتضى العدالة الاجتماعية بمعناها القانونى، أى عدالة التوزيع، هو عدالة التوزيع - حتى - فى توزيع الجوع والشبع، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جعلوا ما كان عندهم فى ثوب واحد. ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية. فهم منى وأنا منهم)(٥).

(١-٢) ١١٧-١١٨/ طه، ٣١/ الأعراف.

(٣-٥) الألبانى: السابق - ص ١١٣ رقم ٦٦٦٠، ص ٩٩٠ رقم ٥٦٧٤، ص٣٢٨ رقم ١٥٨٢.

على أن العدالة فى توزيع الجوع والشبع، ليست واجباً على الدولة فحسب، إنما هى أيضاً واجب فردى على الجار، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه**)([1]).

٢- حق الإنسان فى عدم التعرى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ ... إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى**﴾([2]).

وهذا الحق يقابله واجب الإنسان بعدم التعرى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**نهيت عن التعرى**)([3])، وقوله أيضاً: (**نهيت أن أمشى عرياناً**)([4]). ومبنى هذا الحق وما يقابله من واجب، يتمثل فى أمرين، هما ما يلى:

أ - عدم التعرى يُعد وجهاً من وجوه التمييز بين نوعى البشر الأرضى، أى التمييز بين الإنس والجن، الذين لم يجعل الله لهم من دون الشمس ستراً من ملابس حتى الآن، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن ذى القرنين: ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ...**﴾([5]).

لذا، تقتصر ملابس الجن على مجرد ما يستر عوراتهم فحسب، مصداقاً لما رواه الزبير، عما شاهده منهم عند لقياهم مع النبى، بقوله: « **صلى بنا رسول الله (ص) الصبح فى مسجد المدينة. فلما**

([1]) الألبانى: السابق - ص ٩٤٩ رقم ٥٣٨٢.

([2]) ١١٧-١١٨/ طه.

([3-4]) الألبانى: السابق، ص ١١٤٧ رقم ٦٧٨٣، ص ١١٤٨ رقم ٦٧٨٤،

([5]) ٨٩-٩٠ / الكهف.

انصرف قال: (أيكم يتبعنى إلى وافد الجن الليلة؟). قالها ثلاثاً، فلم يتكلم أحد منهم. فمر بى يمشى وأخذ بيدى، فجعلت أمشى معه، وما أجد من مس، حتى خنس عنا نخل المدينة كله. وأفضينا إلى أرض بوار، فإذا رجال طوال كأنهم رماح مستشفرى، ثيابهم بين أرجلهم .....»(١).

ب – وعدم التعرى من مقتضيات الحياء الآدمى، الذى هو توأم الإيمان، فيلازمه ويلزم له، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً. فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)(٢).

ومن ثم، فكما يُحب الله الإيمان، فإنه سبحانه يحب الستر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الله تعالى حيى ستير. يحب الحياء والستر. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر)(٣). وأيضاً تستحى الملائكة من كل حيى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن عثمان – حيى ستير، تستحى منه الملائكة)(٤).

لذا، تكفلت السنة بتحديد مساحة جسم الإنسان، التى يجوز تعريتها وتلك التى يجب سترها بالملابس. للرجل والمرأة على حسب الأحوال، وبالأخص المرأة التى بلغت المحيض، مصداقاً لقول خاتم

---

(١) محمود السعيد الطنطاوى: من فضائل العشرة المبشرين بالجنة، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٩ القاهرة، ص ١٩٨-١٩٩ نقلاً عن الرياض النضرة.

(٢) الألبانى: السابق – ص ٣٣١ رقم ١٦٠٣.

(٣-٤) الألبانى: السابق – ص ٣٦١ رقم ١٧٥٦، ص ٤٢٣ رقم ٢١٠٦.

الرسل: (يا أسماء: إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يُرى منها شئ إلا هذا وهذا)(١)، وأشار إلى وجهه وكفيه.

وهذا بمثابة الحد الأدنى من مساحة جسم المرأة، والذى يجوز لها تعريته، كما يجوز لها ستره بالنقاب والقفازين، إلا فى الإحرام، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (المحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين)(٢). وقوله : (لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين)(٣).

وليس للمرأة مطلقاً أن تخلع ملابسها خارج بيتها، لأى سبب كان، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ما من امرأة تخلع ثيابها فى غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله)(٤).

وبدهى أنه ليس للإنسان حق فى التعرى وحق فى عدم التعرى معاً، وبما يترتب على ذلك من آثار، كالتالى:

- فلا يجوز لامرأة أن تتعرى ولا تتعرى وهى فى ملابسها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: ..... ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة. لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد على مسيرة كذا وكذا)(٥).

(١-٤) الألبانى: السابق - ص ١٢٩٥ رقم ٧٨٤٧، ص١٢٤٠ رقم ٧٤٤٥، ص ١١١٣ رقم ٦٦٨٠، ص ٩٣٣ رقم ٥٦٩٢.

(٥) الألبانى: السابق - ص ٧٠٨ رقم ٣٧٩٩.

- ولا يجوز لامرأة أن تتعرى أو تُعرى غيرها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها، كأنه نظر إليها)**(١).

- ولا يجوز لرجل أن يتعرى أو يُعرى غيره، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا تكشف فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حى أو ميت)**(٢).

- ولا يجوز تعرية العورة بوجه خاص، حتى عورة الرجال مع بعضهم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(احفظ عورتك ... قيل: إذا كان القوم بعضهم فى بعض؟. قال: إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها. قيل: إذا كان أحدنا خالياً؟. قال: الله أحق أن يستحيا من الناس)**(٣).

بديهيات: بدهى أن الخروج عن تلك الضوابط، هو انعدام للحياء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(آخر ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت)**(٤). فهى قواعد تتعلق بمقتضى واحد من مقتضيات الحياء الإنسانى، وضوابط هذا المقتضى تحديداً، ولا علاقة لها مطلقاً بحرية الإنسان فى اختيار ملابسه.

وبدهى أيضاً، أن ضوابط الحياء للمرأة، لا تقتصر على ملابسها ولو كانت ساترة لجسمها، إنما تشمل تلك الضوابط أموراً

(١-٤)الألبانى: السابق - ص ١٢٠٧ رقم ٧١٩٧، ص١٢٤٠ رقم ٧٤٤٠، ص١٠١ رقم ٢٠٣، ص ٦٣ رقم ٢.

أخرى، كعطرها مثلاً، فى الطريق، ولو كانت فى طريقها إلى المسجد للصلاة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**إذا استعطرت المرأة فمرت على قوم ليجدوا ريحها، فهى زانية**)([1]).

وبدهى كذلك، أن التزام المرأة بضوابط الحياء، فى ملابسها وفى عطرها وفى غيرهما، لا يخولها أى حق فى العمل فى المجتمع، حتى لو كانت متعلمة بمقتضى الواجب العام بالتعلم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**)([2]).

فالتزامها بتلك الضوابط، وتعلمها أياً كان ما بلغته منه، لن يحولها إلى رجل، وبالتالى لن يكسبها حق العمل فى المجتمع، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى**﴾([3]).

وعليه، ليس للمحجبات والمنتقبات المسلمات المقيمات فى الدول العلمانية، أن يبكين على عدم السماح لهن بالعمل فى المجتمع، إنما على المحجبات والمنتقبات وغيرهن فى الدول العربية والإسلامية، أن يبكين على السماح لهن بالعمل فى المجتمع. بل على هؤلاء وهؤلاء أن يبكين على فشلهن فى الحصول على زوج، أو فى

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ١٢٠ رقم ٣٢٣، ص ٧٢٧ رقم ٣٩١٤.

([3]) ٣٣/ الأحزاب.

استمرار حياتهن الزوجية، أو فى تربية أولادهن على حسب الأحوال.

٣- حق الإنسان فى عدم الظمأ، مصداقاً لقوله تعالى لآدم: ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا ...﴾(١).

٤- حق الإنسان فى مأوى يأويه، مصداقاً لقوله تعالى لآدم: ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾(٢).

٢٧- كيف تسرب اللاعلم :

كيف استعاض المسلمون عن علمهم الذى يجب عليهم أن يستكملوه من القرآن والسنة، باللاعلم بأنواعه، أى الفلسفة والفنون والإيديولوجيا الغربية؟.

لقد تزود المسلمون تباعاً بهذه الغربيات، من خلال مندوبين عن المسلمين، أقاموا فى الدول العلمانية إقامة متصلة أو إقامة متقطعة، أولئك الذين لم يعد يشغلهم حالياً هناك، إلا التمييز الحاصل بينهم وبين العلمانيين الأصليين، من حيث فرص العمل، خاصة بالنسبة للمحجبات والمنتقبات.

ومن ثم، لم يفطن المسلمون حتى الآن، إلى هدية العسل المسموم، التى كان عليهم قبل أن يقبلوها أصلاً، أن يبحثوا عن

(١-٢) ١١٩/ طه، ١١٩/ طه.

«أثر» إقامة هؤلاء المتصلة أو المتقطعة بين أظهر العلمانيين ومعهم، بالنسبة لهم شخصياً، وما عساه يكون متوقعاً فى هديتهم بعد ذلك، وذلك فى ضوء قول خاتم الرسل: **(من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة)**(١)، وقوله أيضاً: **(أنا برئ من كل مسلم، يُقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى نارهما)**(٢)، أى لا يُرى ناره ونارهم معاً على المسلمين.

فهل لنا أن نستمر بعد ذلك، فيما نحن عليه حتى الآن منذ أوفد «محمد على» أول وفد مصرى إلى هناك، وبالتالى عادت الوفود تباعاً منبهرة بما رأت، ومحملة بهدايا عسلهم المسموم من الفلسفة والفنون والأفكار الإيديولوجية، وغضضنا الطرف تماماً عن نارهم ونار العلمانيين على المسلمين، واستقبلناهم استقبال الرواد المصلحين، وكأن الذمة لم تبرأ منهم قط، وكأن الرسول لم يتبرأ منهم قط؟.

أم علينا أن نعدل عن السير فى هذا الطريق، الذى نُهينا عن السير فيه أصلاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه)**(٣)

(١-٢) الألبانى: السابق – ص ١٠٤٩ رقم ٦٠٧٣، ص ٣٠٦ رقم ١٤٦١.

(٣) الألبانى: السابق – ص ٩٠٣ رقم ٥٠٦٧.

المطلب الثانى

علـــم المسلمـــــــين

المعلوم والمختلف فيه

٢٨- تقسيم :

لم يتعلم المسلمون مما يجب عليهم تعلمه من القرآن والسنة، إلا القدر الضئيل. إنما كان اختلافهم فيما تعلموه اختلافاً عميقاً وواسعاً، وفادح البطلان فى نفس الوقت، وبالتالى تتوزع محتويات المطلب الراهن على ثلاثة فروع ، كما يلى:

الفرع الأول: ضآلة علم المسلمين المعلوم.

الفرع الثانى: اختلافات المسلمين المذهبية.

الفرع الثالث: حكم الشرع فى المذهبية.

الفرع الأول

ضآلة

علم المسلمين المعلوم

٢٩- لم يتعلموا من القرآن لغته :

لا يُنكر المسلمون المعاصرون أنهم لم يتعلموا من القرآن، حتى لغته العربية.

فالماثل فى تصور اللغويين منذ قديم، أن القرآن لم يضف شيئاً إلى اللغة العربية، التى كانت سابقة مباشرة على نزوله، والتى كانت معاصرة لنزوله، والتى نزل بها هذا القرآن على خاتم الرسل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(١)

---

(١) ٤ / إبراهيم.

ومازال اللغويون العرب يرددون هذا التصور حتى الآن، وكأنه بديهية من البديهيات، رغم أنه تصور خاطئ جملة وتفصيلاً. إذ يقوم هذا التصور على مفهومهم البدائى والفاسد تماماً، لفكرة: «قوم خاتم الرسل»، كما يلى:

١- فلا القرآن قال لهم أنه نزل بلغة قوم خاتم الرسل وقت نزوله فحسب، دون قومه فى أى وقت سابق على نزوله.

٢- ولا خاتم الرسل قال لهم أن قومه هم قومه وقت نزول القرآن فحسب، دون قومه قبل نزول القرآن.

٣- إنما العكس هو الصحيح تماماً فى السنة، وذلك كما يلى:

أ - فخاتم الرسل قال للمسلمين عام وفرادى، إن قومه هم قوم إسماعيل، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة. واصطفى من قريش بنى هاشم. واصطفانى من بنى هاشم)**[١].

ب- وإسماعيل ولد إبراهيم، وبالتالى قال خاتم الرسل للمسلمين عامة وفرادى: أن قومه هم قوم إبراهيم، الذى كان عربياً، حتى من حيث ملامحه الشخصية العامة التى تتطابق تمام المطابقة مع الملامح الشخصية لخاتم الرسل، مصداقاً لقول صلى الله عليه وسلم: **(... أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم)**[٢] يعنى نفسه شخصياً.

جـ - بل إن خاتم الرسل قال للمسلمين عامة وفرادى أنه - حتى - من قوم آدم، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: **(كنت نبياً**

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٣٥٣ رقم ١٧١٧.
(٢) الألبانى: السابق، ص ٦٥٣ رقم ٣٤٧١.

وآدم بين الروح والجسد)([1])، وقوله أيضاً: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم. ثم جعلهم فرقتين، فجعلنى فى خيرهم فرقة. ثم جعلهم قبائل، فجعلنى فى خيرهم قبيلة. ثم جعلهم بيوتاً، فجعلنى فى خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً، وأنا خيركم نفساً)([2]).

إذن قوم خاتم الرسل وقت نزول القرآن، ليسوا فقط أهل مكة وما حولها، إنما هم قوم إسماعيل وبطونهم، بل هم كذلك قوم آدم وبطونهم حتى إبراهيم، وبالتالى فإن الأحاديث النبوية الشريفة، كانت كافية بذاتها لتنبيه المسلمين عامة وفرادى. وتنبيه اللغويين خاصة، إلى ثلاثة أمور، كما يلى:

أولاً : لغة القرآن العربية لا تقتصر على لغة إسماعيل العربية فحسب. والقرآن ذاته وضع هذه الحقيقة تحت بصر المسلمين عامة وفرادى، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ...﴾([3])، بمعنى أن البيت العتيق وضع لأول مرة فى «مكة» منذ أن كان إسمها «بكة» فى اللغة العربية قبل إسماعيل.

وثانياً: لغة القرآن العربية لا تقتصر – حتى – على لغة الإنسان العربية، قبل إسماعيل وبعد إسماعيل. فالقرآن لا يخاطب الإنسان وحده، إنما يخاطب – على الأقل – البشر الأرضى بنوعيه

([1-2]) الألبانى: السابق، ص ٨٤٠ رقم ٤٥٨١، ص ٣٠٩ رقم ١٤٧٢.

([3]) ٩٦/ آل عمران.

من الإنس والجن الذى استمع نفر منه إلى القرآن وأعجب به وآمن به وأسلم لله فى عصر النبوة.

وثالثاً: لغة القرآن العربية هى «عدد» من اللغات العربية تتابعت تاريخياً، منذ خلق الله «الخلق» و «البشر» بأنواعه.

وعليه، إذا كان اللغويون العرب قد اقتصروا فى تنظيرهم، على مجرد اللغة العربية لأهل مكة وما حولها وقت نزول القرآن، فإنهم بهذا لم يتعلموا لغة القرآن العربية حتى الآن، إنما تعلموا «إحدى» لغات القرآن العربية فحسب، وبالتالى عليهم أن يستكملوا تعلمهم من القرآن، أى يتعلموا كامل لغة القرآن العربية.

والسؤال العلمى الذى يفرض نفسه تلقائياً، هو ما يلى: إذا كان اللغويون لم يتعلموا من القرآن لغته، أو لم يتعلموها كاملة، فما مدى صحة تفاسيرهم للقرآن إذن، منذ الطبرى حتى الآن؟

٣٠- ولم يتعلموا من القرآن موضوعاته :

لا يُنكر المسلمون المعاصرون أنهم لم يتعلموا من القرآن والسنة بعد، إلا موضوعين اثنين يتيمين لا ثالث لهما. وهما حصراً: العبادات والمعاملات. ويترتب على ذلك بالبداهة، ما يلى:

١- استنفد دارسو القرآن والسنة عبر القرون الماضية كلها، جهدهم ووقتهم فى دراسة هذين الموضوعين التقليديين وحدهما، وهما: العبادات والمعاملات، دون غيرهما.

٢- وفيما عداهما من موضوعات، هى موضوعات لم يتعلمها المسلمون بعد. وهى موضوعات كثيرة تشغل ١١٤ سورة قرآنية، وضرورية علمياً وعملياً: كنظرية الخلق، ونظرية البشر، ونظرية

العلم، ونظرية البرلمان، ونظرية القضاء، ونظرية الدستور الوضعى، ونظرية الرجل، ونظرية المرأة، ونظرية مؤسسة الرئاسة، ونظرية لغة القرآن ... إلى آخر النظريات العلمية/ العملية الموجودة فى القرآن والسنة.

٣١- ولم يتعلموا من القرآن كل أحكامه :

ولا يُنكر المسلمون المعاصرون أنهم لم يتعلموا من أحكام القرآن كله، إلا ما يتراوح بين ٢٥٠-٥٠٠ آية بالأكثر(١)، هى آيات أحكام. وهى نسبة ضئيلة جداً من مجمل آيات القرآن وعددها ٦٣٤٢ آية(٢). فهى نسبة تتراوح بين $\frac{1}{30}$ - $\frac{1}{12}$ من القرآن.

أما باقى الآيات فهى تُعامل كأنها ليست آيات أحكام قانونية، علماً بأن القرآن كله بمعناه الموضوعى هو: «شريعة» أى قانون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ...﴾(٣).

٣٢- لم يتعلموا من القرآن علم دراسته :

لا يُنكر المسلمون المعاصرون أنهم لم يدرسوا شيئاً فى القرآن، إلا بأدواتهم الخاصة البدائية القديمة، التى هى: إما «التفسير» اللغوى الذى ترجع فكرته إلى الطبرى فى نهاية القرن الثالث الهجرى. وإما «الأصول» الفقهية، التى ترجع فكرتها إلى الشافعى فى أواخر القرن الثانى الهجرى.

(١-٢) صوفى حسن أبو طالب: السابق ،ص ٤٦.

(٣) ١٨/ الجاثية.

ومن هذا التاريخ، يجرى تباعاً «تدوير» هذه الأدوات الخاصة البدائية إلى الآن، حتى حسب المسلمون جيلاً بعد جيل، ما يلى:

١- أنه لا يوجد علم مخصوص ومخصص لدراسة أى شئ وكل شئ فى القرآن، دراسة علمية.

٢- وأن هذا العلم المخصوص والمخصص لدراسة القرآن دراسة علمية، ليس موجوداً فى القرآن ذاته.

٣- وأن قدر القرآن أن يكون رهين المحبسين، أى رهين التفسير اللغوى والأصول الفقهية، ولو كانا طريقين بدائيين باليين. وربما كانا طريقين صالحين لدراسة العبادات والمعاملات منذ أكثر من ألف ومائتى سنة أى فى عصر الطبرى والشافعى، إنما لم يعودا صالحين لدراسة العبادات والمعاملات أو غيرهما من موضوعات القرآن حالياً.

والعلم المخصص لدراسة القرآن علمياً، هو علم قرآنى، أى موجود فى القرآن، ولو لم يتعلمه المسلمون بعد من القرآن.

٣٣- لم يتعلموا من القرآن مصطلحاته :

كان طلاب أكاديمية الأميين للقانون، على يقين من أن القرآن كتاب علم وعمل، أى كتاب للعلم بالقانون وللعمل بموجبه. أما بعدهم، فلم يعد الأمر كذلك، وبما ترتب عليه من آثار سلبية - حتى - بالنسبة لاصطلاحات القرآن، وذلك كما يلى:

١- ليس لدى المسلمين أى «معجم قانونى»، يضم اصطلاحات القرآن، ويميز أو يربط أو يطابق بينها اصطلاحياً.

ومن ثم، لم يعلم المسلمون بعد، أن القرآن كله، كتاب قانون، وبالتالى له اصطلاحاته، التى لها مفاهيمها الاصطلاحية، أى مفاهيمها القانونية.

فمثلاً، «الأسماء كلها» التى علم الله آدم إياها، هى «اللغة» اصطلاحياً. ومثلاً «الأمة» التى كانها إبراهيم عليه السلام. و«الأمة» الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. و«أولى الأمر منكم» أى أولى الأمر والنهى القانونيين. كلها بمعنى اصطلاحى واحد، هو: الهيئة التشريعية، أو «الأمة التشريعية» واختصاراً الأمة التى تتكون من أولى الأمر والنهى القانونيين، أى هى معانى لما يعرف فى اللغة المعاصرة بـ «البرلمان».

٢- ولم يلتزم المسلمون بدقة اصطلاحات القرآن، وبالتالى يعتبرون القرآن مرادفاً للكتاب، والحكمة مرادفة للسنة، والدين مرادفاً للملة، والملة مرادفة للشريعة، والبشر مرادفاً للإنسان، والإنسان مرادفاً لبنى آدم، والشورى مرادفة للتشاور أو المشورة على حسب الأحوال.... وهكذا.

وحتى فى دراسات الشرعيين حالياً، يتكلمون عن الاصطلاح ويقصدون به اصطلاح الفقهيين، وليس اصطلاح القرآن، ثم يعتبرون اصطلاح القرآن مجرد لفظ لغوى بحت.

٣- كما لم يلتزم المسلمون بخصوصية اصطلاحات القرآن، وبالتالى ابتدعوا ألفاظاً وعبارات ما أنزل الله بها من سلطان: مثل: «إسلامى» و «إسلامية» و «العقيدة» و «إعجاز القرآن» و «مقاصد الشريعة» و «المصالح المرسلة» و «سد الذرائع» و «الإسلام دين ودولة» و «الإسلام عقيدة وشريعة» و «الإسلام السياسى».... إلخ.

٣٤- الخلاصة :

لم يتعلم المسلمون من القرآن كل لغته، ولا كل موضوعاته، ولا كل أحكامه، ولا العلم المخصص لدراسته علمياً، ولا - حتى - اصطلاحاته، وبالتالى فهم لم يتعلموا من القرآن إلا القدر الضئيل، وذلك بصرف النظر عن أى تهويل أو مبالغة من جانب نُخب المسلمين، أو من جانب دارسى القرآن والسنة. فهؤلاء يبالغون فى قدر ما تعلموه من القرآن.

الفرع الثانى

اختلافات المسلمين المذهبية

٣٥- أصل المشكلة :

أدت أكاديمية الأميين للقانون، ما عليها من أمانة تعليم: التلاوة، والكتاب، والحكمة، والسنة، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾**(١).

---

(١) ١٥١/ البقرة.

وغداة وفاة خاتم الرسل، ظهرت بين المسلمين مشكلة الاختلاف فى الرأى باسم الاجتهاد، والتى تنامت عبر القرون الماضية، حتى وصلت إلى عصرنا الحالى، وهى متوحشة للغاية، ومعروفة فى الأدبيات بـــ «المذهبية الإسلامية»، وترجع إلى ضآلة ما تعلمه المذهبيون من القرآن والسنة.

وخطورتها، ليست فى كونها اختلافاً فى الرأى حول ثوابت المسلمين فحسب، إنما أيضاً فى قيامها على تصور أن هذه الثوابت مرنة وواردة تمثيلاً ونسبية، وبالتالى فهى تقبل التعديل بالانتقاص منها أو بالإضافة إليها أو بالتحوير فيها بطريق الاجتهاد.

٣٦- كيف هى ثوابت مرنة؟

لدى المذهبيين أن ثوابت المسلمين ليست جامدة، إنما هى ثوابت مرنة، وبالتالى تقبل التعديل ولو بالانتقاص منها بطريق الاجتهاد. لكن اختلفت تطبيقاتهم للانتقاص من هذه الثوابت، كما يلى:

١- فقديماً، تصور البعض أن من الممكن أن تكون الزكاة جوازية فحسب، بدلا من كونها وجوبية، وبالتالى يكون المسلم حراً فى أن يُخرجها أو لا يخرجها على حسب الأحوال. وهكذا نشأ مذهب مانعى الزكاة قديماً، وقد حاربهم أبو بكر بقوة الدولة آنذاك.

٢- وقديماً أيضاً، تصور البعض أن من الممكن أن تظل الشهادة لله وجوبية، بينما تكون الشهادة لخاتم الرسل جوازية فحسب، وبالتالى يكون الفرد حراً فى أن يشهد لخاتم الرسل أو يشهد لمن يجئ بعده رسولاً، رجلاً كان أو امرأة، على حسب الأحوال. وهكذا نشأ

مذهب المسيلمين الكذابين ومذاهب أخرى، وحاربهم أبو بكر بقوة الدولة آنذاك. وجرى إحياء هذا المذهب مؤخراً على يد البهائيين.

٣- ومنذ أقل من قرن وربع، تصور البعض أن من الممكن أن يكون التمسك بالقرآن والسنة جوازياً، بدلاً من أن يكون وجوبياً، وبالتالى يكون للفرد أن يتمسك بهما أو يتمسك بما يجئ بعدهما، على حسب الأحوال. وهكذا نشأ مذهب البهائيين.

٤- ومؤخراً، تصور البعض أن من الممكن أن يظل التمسك بالقرآن وجوبياً، بينما يكون التمسك بالسنة جوزياً فحسب، وبالتالى يكون المسلم حراً فى أن يتمسك بها أو لا يتمسك بها، على حسب الأحوال. وهكذا نشأ مذهب القرآنيين.

٣٧- كيف هى ثوابت واردة تمثيلاً ؟

لدى المذهبيين أن ثوابت المسلمين ليست واردة حصراً، إنما هى واردة تمثيلاً فحسب، وبالتالى تقبل التعديل ولو بالإضافة إليها بطريق الاجتهاد. لكن اختلفت تطبيقاتهم للإضافة إلى هذه الثوابت، كما يلى:

١- فقديماً، تصور البعض أن من الممكن أن يضاف إلى الأركان الخمسة للإسلام، ركناً آخراً على الأقل، أو ركنين على الأكثر. وهكذا نشأ مذهب الخوارج ومذهب الشيعة ثم مذهب «البهرة» فى الهند.

فأضاف الخوارج ركن الجهاد، وأضاف الشيعة ركن الخلافة (أى الإمامة). وأضاف هؤلاء وهؤلاء، ركناً ثانياً، هو التكفير، وبالتالى كفر الخوارج علياً ومعاوية، وكفر الشيعة – حتى – أبا بكر وعمر.

وأضاف البهرة ركن «الطهارات» ويتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام.

٢- وتصور البعض أن من الممكن أن يُضاف إلى القرآن والسنة، اجتهادات المجتهدين فى التفسير وفى الفقه. ولم لا، أليس هؤلاء هم ورثة الأنبياء، وفيهم التابعى وترجمان القرآن والإمام الأعظم والإمام الأكبر وشيخ الإسلام وحجة الإسلام والعارف بالله و – حتى – قائد الثورة الإيرانية ..... وهكذا؟

ولم لا تكون تلك الاجتهادات المذهبية – حتى – جزءاً من الشريعة ذاتها؟. ألم يقم بها المجتهدون، وهم أولوا أمر المسلمين، الذين أوجب الله عليهم طاعته وطاعة الرسول وأولى الأمر منهم؟

بل لم لا تكون – حتى – تلك الاجتهادات المذهبية جزءاً من الشريعة، ولو كانت اجتهادات خاطئة؟. أليس للمجتهدين المخطئين أجراً على الأقل، وللمجتهدين المصيبين أجرين؟

وماذا يُضير المسلمين من اختلاف الاجتهادات المذهبية، أليس فى هذا الاختلاف رحمة بالمسلمين ذاتهم، بل هو – حتى – سنة الله فى خلقه؟

وهذه الإضافة إلى القرآن والسنة، توافقت عليها الفرق الكبرى، والفرق الصغرى، وعلى اختلاف أنواعها ومسمياتها قديماً وحديثاً، لما تحققه لهم تلك الإضافة من فرض وصاية عامة، أى كهنوت.

فهذه الوصاية ليست فقط على المسلمين عامة وفرادى، إنما هى أيضاً على القرآن والسنة، وبالتالى مصادرة حق المسلمين فى الاجتهاد فيهما، وقصر هذا الاجتهاد على ما كان موجوداً منه منذ قديم، وتتداوله المذاهب حتى الآن، ويعرفه المذهبيون وحدهم.

٣٨- كيف هى ثوابت نسبية؟

ولدى المذهبيين أن ثوابت المسلمين ليست مطلقة، إنما هى نسبية فحسب، وبالتالى تقبل التعديل ولو بالتحوير فيها بطريق الاجتهاد، وبالأخص فكرة التأسى بخاتم الرسل، وبالتالى أصبح المذهبيون يتأسون بغير خاتم الرسل، ويتباهون عياناً بياناً يتأسون بغيره.

وقد تعددت رموزهم تبعاً لتعدد فرقهم. فمثلاً، تأسى الشيعة بعلى وذريته، وتأسى الخوارج قديماً بابن وهب الراسبى. وتفرقت الشيعة والخوارج إلى فرق تأست كل فرقة بمن اختارته. وكذلك كان التأسى بأبى حنيفة أو الشافعى أو مالك أو بن حنبل أو ابن حزم الظاهرى .... وهكذا.

وانغلقت كل فرقة على نفسها، وعملت على استمرار بقائها، لدى أعضائها على الأقل، فابتدعت حظراً على أعضائها بعصيان

شيخها أو مذهبه، وابتدعت – حتى – بيعة لمبايعة شيخها على السمع والطاعة، والدفاع عن الفرقة والمذهب.

وبهذا النظام، أمكن لتلك الفرق أن تعيش على امتداد قرون طويلة، حتى وصلت إلى عصرنا بتراكماتها وتفرعاتها وتعدد رموزها، على نحو ما هى عليه الآن من التوحش.

ففى وقتنا الحاضر، قلما تجد مسلماً ليس مذهبياً. وقلما تجد مسلماً مذهبياً يعتقد أنه ليس من الفرقة الناجية من النار، بينما العكس هو الصحيح بإطلاق. فثوابت المسلمين، ليست مرنة، ولا واردة تمثيلاً، ولا نسبية، وتلك حقيقة يُنكرها المذهبيون بإطلاق، حتى «أهل السنة والجماعة» فى وقتنا، حيث لم يعد هناك من هم أهل لذلك.

الفرع الثالث

حكم الشريعة

فى المذهبية

٣٩- من مشكلات اللاعلم :

المذهبية هى مشكلة مختلقة أصلاً، أى اصطنعها المذهبيون، وتنامت تباعاً على أيديهم، بسبب ضآلة ما تعلموه من القرآن والسنة، وبالتالى فهى من مشكلات اللاعلم non – science الذى هو نقيض العلم، ولا نفع فيه، ويجب التعوذ بالله منه.

فثوابت المسلمين، ليست مرنة، ولا هى واردة تمثيلاً، ولا هى نسبية، إنما العكس هو الصحيح تماماً، أى هى ثوابت جامدة، وواردة حصراً، ومطلقة السريان، وذلك على التفصيل التالى:

١- فهى ثوابت جامدة على الدوام، وتستعصى - بالتالى - على أى تعديل، أى تستعصى على التعديل بالإضافة أو بالانتقاص أو بالتحوير، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا علىَّ الحوض)**(١).

فالقرآن والسنة معاً، مُلزمان للمسلمين عامة وفرادى، ومتلازمان معاً على الدوام، حتى يردا معاً إلى خاتم الرسل على الحوض، ويردا وحدهما، فلن يرد معهما اجتهادات المذهبيين فى التفسير وفى الفقه. فهذه الاجتهادات ليست جزءاً من الشريعة بأى حال من الأحوال، ولا يجب إذن أن تضاف إلى القرآن والسنة.

وكذا مذهب القرآنيين هو مذهب محظور تماماً، لأنه لا يجوز مطلقاً استبعاد السنة واعتبارها كأن لم تكن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدرى، ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه)**(٢).

٢- وثوابت المسلمين واردة حصراً، وتستعصى بالتالى على التعديل فيها بالإضافة أو الانتقاص أو التحوير، مصداقاً لقول خاتم

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٥٦٦ رقم ٢٩٣٧.
(٢) الألبانى: السابق، ص ١٢٠٤ رقم ٧١٧٢.

الرسل: (بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)(١).

ومن ثم، فإضافة الجهاد أو الخلافة (الإمامة) أو التكفير أو الطهارات، إلى تلك الأركان الخمسة للإسلام، إنما هى بدعة من بدع الضلال. وكذلك الانتقاص من هذه الأركان، كانتقاص الشهادة لخاتم الرسل، أو انتقاص الزكاة، أو انتقاص الحج كما فى بعض طوائف لبنان، إنما هو بدعة من بدع الضلال.

٣- وخاتم الرسل، ليس إسوة فحسب، بحيث يمكن الاستعاضة عنها بغيرها، إنما هو «إسوة حسنة»، بحيث يجب التأسى به وحده دون غيره، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢).

ولماذا يفر المذهبيون من التأسى برسول الله، إلى التأسى بغيره؟. لأن التأسى الأول يلزمهم قانوناً بعدم الكذب مطلقاً على خاتم الرسل، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عنى ولو آية ... ومن كذب علىَ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(٣). ولا يوجد هذا القيد القانونى فى التأسى بأى أحد آخر من الناس أياً كان، وبالتالى فلا مصداقية ولا موثوقية فى كلامهم داخل مذهبهم، أو عن المذاهب الأخرى، أو – حتى – فى كلامهم عن أحاديث خاتم الرسل.

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٥٤٧ رقم ٢٨٤٠.
(٢) ٢١/ الأحزاب.
(٣) الألبانى: السابق، ص ٥٤٦ رقم ٢٨٣٧.

والمذهبية إذ تقوم على فهمها الخاطئ لثوابت المسلمين، فهى من محدثات الأمور وبدعها، التى يجب اجتنابها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**أوصيكم بتقوى الله ... وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة**)(١).

٤٠- بطلان المذهبية :

محصلة المذهبية على امتداد القرون الماضية كلها حتى الآن، أى محصلة الفرق والمذاهب واختلافاتها واجتهاداتها، هى محصلة باطلة بنسبة ٩٨,٧% أى $\frac{72}{73}$، وبالتالى فصحيحها لا يتجاوز نسبة ١,٣% أى $\frac{1}{73}$ من إجمالى تلك المحصلة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**.... والذى نفس محمد بيده، لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة. فواحدة فى الجنة، واثنتان وسبعون فى النار**)(٢).

ولا ريب أن هذه النسبة للبطلان هى نسبة فادحة، وبالتالى صادمة للمذهبيين، أى مُفجعة ومُوجعة لهم، لكنها الحقيقة المقننة قانوناً، والتى كان يجب أن تكون تحت بصرهم على امتداد القرون الماضية، والتى يجب أن تكون تحت بصرهم الآن. لكى يكفوا - على الأقل - عن الكلام عن «التراث الإسلامى» و «الفقه الإسلامى» و «أصول الفقه الإسلامى» و «الفلسفة الإسلامية» و«السياسة الشرعية» .... إلخ. فهو كلام زائف، أى مخالف للحقيقـــة.

(١-٢) الألبانى: السابق، ص ٤٩٩ رقم ٢٥٤٩، ص ٢٤٥ رقم ١٠٨٢.

فكلامهم هذا من قبيل الترويج للمذهبية، ولا ينم مطلقاً عن اهتمامهم بفداحة بطلانها، ولا عن وجود أى نية لديهم لعلاجها، أو التخلص منها، وكأنهم لم يقرأوا بتروٍ وإمعان تاريخ هولاكو والتتار، يوم القوا بمحتويات مكتبة بغداد فى ماء الفرات.

فيومئذ، وفى هذا العمل بالذات، لم يكن هولاكو والتتار مجرد فجار، إنما كانوا فجاراً مُسخرين لتطهير أكبر مكتبة فى الدولة آنذاك وهى مكتبة العاصمة، من بطلان المذهبية، ولتجنيب المسلمين شر المذاهب والفرق، تأييداً للدين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر)(١).

لذا فقد سُخروا لإلقاء محتوياتها فى ماء جار وطاهر هو ماء الفرات، وبالتالى فلم يلقوها – حتى – فى الشوارع لكى تداس بالأقدام أو فى ماء آسن أو فى مياه البرك والمجارير، وذلك إجلالاً وأكراماً لما بتلك المحتويات من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية، وليس إلا. أما ما عدا هذه النصوص والأحاديث، فإنه كلام المذهبيين حتى سقوط بغداد (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م). وهو كلام باطل بنسبة $\frac{72}{73}$ (٩٨,٧%) وذلك على حسب ما هو مقنن فى حديث خاتم الرسل.

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٣٧٢ رقم ١٨١٣.

وكان على المسلمين منذ هذا التاريخ تحديداً، أن يلقوا المذهبية والمذاهب والفرق واختلافاتها واجتهاداتها، وراء ظهورهم على الأقل، وأن يشرعوا – بالتالى – فى دراسة كل القرآن والسنة، دراسة مباشرة، وجديدة، ودراسة علمية.

لكن لم يحدث أى شئ من ذلك على امتداد أكثر من سبعة قرون مضت، وبالتالى ظلت المذهبية وظل المذهبيون يتباكون على ازدهارها قبل سقوط بغداد، أى ازدهار الفقه فى العصـــر العباسى، وذلك حتى الآن.

وهو تباكى على الماضى، لا على المستقبل، ولا – حتى – على الحاضر، حيث لا حظ توبى أ٠هاف Toby E. Huff، أن علم المسلمين كان عقيماً وفاشلاً وعاجزاً عن إنجاب العلم الحديث، الذى أنجز حتى الآن. وذلك فى مؤلفه الصادر عام ١٩٩٣ بعنوان: «بزوغ العلم الحديث» the rise of early modern science .

٤١- المسلم والمسلم المذهبى (الإسلامى) :

المذهبيون، هم المسلمون الذين ميزوا أنفسهم بأنفسهم، برأيهم فيما لا رأى لهم فيه مطلقاً، ألا وهى: ثوابت المسلمين، التى هى بطبعها جامدة وواردة حصراً ومطلقة، وبالتالى فهى لا تقبل الحذف منها أو الإضافة إليها أو التحوير فيها.

فكان رأيهم فيها خاطئاً، ويعتبرها ثوابت مرنة وواردة تمثيلاً ونسبية، وبالتالى تقبل الحذف منها والإضافة إليها والتحوير فيها، وساروا على ذلك.

فأصبحوا بهذا مسلمين غير المسلمين، الذين أولهم خاتم الرسل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾(١)، وقوله أيضاً: ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

فخاتم الرسل، كان مسلماً فحسب، ولم يكن مسلماً مذهبياً قط. فلا كان صلى الله عليه وسلم سلفياً، أو إخوانياً، أو صوفياً، أو شيعياً، أو وهابياً، أو حنفياً، أو شافعياً، أو مالكياً، أو حنبلياً، أو سنياً، أو جهادياً، أو خوارجياً، أو تكفيرياً .... إلخ.

لذا فإن هؤلاء يستعذبون حالياً تمييز أنفسهم تحت مسمى «التيار الإسلامى»، بما يعنى أن المذهبى هو مجرد «إسلامى» فحسب، وبالتالى عليهم أن يقفوا وقفة واحدة، جادة وموضوعية، فى مواجهة المذهبية بوجه عام، التى ليس علاجها فى التقريب بين المذاهب، ولا فى المقارنة بين المذاهب، بل إن هذا التقريب وتلك المقارنة يشدان من عضد المذهبية، ويقويانها.

(١-٢) ١٤/ الأنعام، ١٢/ الزمر.

إنما علاجها فى عدم الإسهام فيها بأى وجه من الوجوه، وفى الابتعاد عنها، أى تجنبها والفرار منها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، المضطجع فيها خير من الجالس، والجالس فيها خير من القائم. والقائم فيها خير من الماشى. والماشى فيها خير من الساعى إليها. ألا فإن نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فيلحق بإبله. ومن كانت له غنم، فليلحق بغنمه. ومن كانت له أرض فليحق بأرضه. ومن لم يكن له شئ من ذلك، فليعمد إلى سيفه، فيدق على حده بحجر. ثم لينج إن استطاع النجاء. اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت)**(١).

وقوله أيضاً: **(إنه ستكون فرقة واختلاف. فإن كان كذلك، فاكسر سيفك، واتخذ سيفاً من خشب. واقعد فى بيتك حتى تأتيك يد خاطئة، أو منية قاضية)**(٢).

وليس عسيراً على المسلم المذهبى، أن يعود مسلماً فحسب، أى يخرج من المذهبية، إلا إذا كان قد أدمنها، وأدمن الاستقواء بأفراد مذهبه، وأدمن الاسترزاق منها، وأصبح عصياً على المذهبية أن تخرج منه.

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٤٧٧ رقم ٢٤٣٠.

(٢) الألبانى: السابق: ص ٤٧٠ رقم ٢٣٩٢.

المطلب الثالث

علـــم المسلمـــــــين

المجهـــول

٤٢- تقسيم :

وأد هذا العلم حتى الآن، إنما يرجع إلى الطريقة البدائية التى استمرت بها دراسة القرآن منذ قديم، والتى أفضت إلى التجهيل بـ «صناعة» القرآن، والتجهيل - بالتالى - بالعلم المخصص لدراسة القرآن دراسة علمية. ومن ثم تتوزع محتويات هذا المطلب على ثلاثة فروع كالتالى:

الفرع الأول: بدائية طريقة دراسة القرآن.

الفرع الثانى: الصنعة القرآنية.

الفرع الثالث: علم دراسة القرآن.

الفرع الأول

بدائية

طريقة دراسة القرآن

٤٣- طريقة أقدم من القرآن :

طريقة دراسة القرآن حتى الآن، ليست طريقة خاصة به وحده، أى ليست حكراً عليه. ولا مُخصصة له أصلاً، إنما هى أسبق فى الوجود تاريخياً منه، أى كانت موجودة ومعروفة قبل نزوله، وكانت مخصصة آنذاك لدراسة الشعر، بل - حتى - لم يكن العرب يعرفون غيرها للدراسة بوجه عام.

وهذه الطريقة، هى مجرد «ترجمة» لغة القرآن العربية إلى لغة عربية أبسط منها، تلك الترجمة التى اشتهرت تسميتها تجوزاً بـ «التفسير»، بل - حتى - اشتهرت تسميتها بـ «تفسير القرآن»، علماً بأن هذه الطريقة كانت موجودة قبل نزول القرآن.

٤٤- طريقة استثنائية لدراسة القرآن :

ولأن هذه الطريقة (الترجمة اللغوية)، لم تكن هى الطريقة الخاصة والمخصصة لدراسة القرآن وحده، فإنها لم تكن قط من بين مقررات دراسته علمياً فى أكاديمية الأميين للقانون، خاصة أن القرآن ليس كتاب لغة بأسلوب شعرى.

على أن بعض الصحابة قد استعان بتلك الطريقة فى دراسته شخصياً، للقرآن، وذلك على اعتبارين: أ - أنها كانت طريقة متوارثة بين العرب من أجيال، ومعروفة لهم منذ قديم، وجربوها كثيراً فى دراسة الشعر، وبسيطة بالنسبة لهم. ب- أنهم لم يعرفوا طريقة غيرها للدراسة بوجه عام.

إنما كانت استعانة هذا البعض بتلك الطريقة البدائية، هى استعانة استثنائية، بمراعاة ما يلى:

أ - كان النبى موجوداً بينهم، يُعلمهم الكتاب والحكمة، ويُغنيهم عن الرجوع إلى تلك الطريقة البدائية.

ب - وكانوا مدركين أن القرآن ليس كتاب لغة بأسلوب شعرى، وبالتالى فإن الطريقة المعروفة لدراسة الشعر، ليست هى الطريقة الأصلية لدراسة القرآن.

٣- ولذا، لم يلجأوا فى دراستهم للقرآن إلى طريقة دراسة الشعر، إلا فى حالة الضرورة، التى تلجئهم بصفة استثنائية إلى اعتبار القرآن بمثابة كتاب شعر، وإلى معاملة طريقة دراسة الشعر - بصفة استثنائية - وكأنها طريقة دراسة القرآن.

بل إن من الصحابة – كعمر بن الخطاب مثلاً – من كان يعتبر هذه الطريقة فى دراسة القرآن، «تكلفاً»، حتى لو كان اللفظ غامضاً عليه شخصياً، مصداقاً لما روى عن أنس: «أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر»(١).

ومنهم من كان لا يعتبرها كذلك، كعبد الله بن عباس، فاستعان بهذه الطريقة فى ترجمة القرآن لغوياً إلى لغة أبسط، بل – حتى – استعان فى هذه الترجمة بأبيات الشعر، واشتهر وصفه منذ قديم بـ «ترجمان القرآن».

٤٥– طريقة أصلية لدراسة القرآن :

تحولت تلك الطريقة البدائية القديمة والاستثنائية لدراسة القرآن، إلى طريقة أصلية لدراسته حتى الآن، وذلك بسبب انبهار اللاحقين بوصف ابن عباس بـ «ترجمان القرآن»، وبالتالى غضوا الطرف عن أمرين:

١– غضوا الطرف تماماً، عن الفارق بين هذا الوصف لابن عباس، وبين ما يأمله له خاتم الرسل فى دعائه المشهور، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل).

---

(١) السيوطى: الإتقان، جزءان معاً، عيسى الحلبى ١٩٥٧ القاهرة، حـ٢، ص١١٣.

فخاتم الرسل لم يرض له أن يظل مجرد مترجم لألفاظ القرآن بأبيات الشعر، لأنه دور ضئيل واستثنائى بالنسبة للقرآن، وبالتالى دعا له أن يتفقه فى الدين، وأن يتعلم التأويل. وذلك بمراعاة أمرين:

- فلا ريب أن الفارق بين ترجمان القرآن والمتفقه فى الدين، هو فارق ضخم، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: **(من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين)**(١).

- ولا ريب أن الفارق بين ترجمان القرآن والمتعلم للتأويل، هو فارق ضخم، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ ...﴾**(٢).

٢- كما غضوا الطرف تماماً، عن طبيعة القرآن، وعن خصوصية دراسته: أ - فالقرآن ليس كتاب لغة بأسلوب شعرى له حلاوة وطلاوة، بحيث تصلح لدراسته علمياً، طريقة دراسة الشعر. ب- والقرآن له خصوصية، التى توجب أن تكون له طريقة خاصة ومخصصة لدراسته وحده، دراسة علمية.

٤٦- وأد علم دراسة القرآن :

استسهل اللاحقون جيلاً بعد جيل، تحول الطريقة البدائية القديمة لدراسة الشعر، إلى طريقة «أصلية» لدراسة القرآن، وبالتالى مازالت مستمرة حتى الآن، بعد أن سموها تجوزاً بـــ «التفسير»، وابتدعوا لها ما يسمى بـــ «علم التفسير»، وهو الأمر الذى ترتب عليه ما يلى:

---

(١) الألبانى: السابق، ص ١١٢٤ رقم ٦٦١١.
(٢) ٧ / آل عمران.

أ – التقاعس عن البحث عن الطريقة الخاصة والمخصصة لدراسة القرآن، دراسة علمية. أما التفسير، فهو ليس أكثر من مجرد «ترجمة» لغوية لألفاظ القرآن. وهى طريقة بدائية، أجادها – حتى – المستشرقون، بل إنهم وظفوها فى دراسة القرآن دراسة انتقادية، أى وظفوها فى انتقاد القرآن. وليس العيب عيبهم إذن، إنما العيب فى التقاعس المشار إليه.

ب – التنكر لفكرة التأويل: إما التنكر لوجودها أصلاً، أى التنكر لها بإطلاق، وبالتالى اعتبارها مجرد مرادفة لفكرة التفسير(١). وإما التنكر لاستقلالها، أى التنكر لها نسبياً، وبالتالى اعتبارها – بالأكثر – نوعاً من أنواع التفسير(٢). بحيث يظل هذا التفسير «الترجمة اللغوية»هو الأصل.

جـ – استمرار الجهل بفكرة «الصنعة القرآنية».

الفرع الثانى

الصنعة القرآنية

٤٧– ماهية الصنعة القرآنية :

لم يكن المسلمون على مر العصور فى حاجة، إلى الجعجعة بلا طحن، التى تدشها نُخبهم وكوادرهم تحت مسمى «إعجاز» القرآن، حتى اهترأت تماماً فكرة إعجازه، وفقدت – حتى – مصداقيتها وموثوقيتها لدى جانب كبير من المستشرقين على الأقل.

(١-٢) انظر بالتفصيل: محمد حسين الذهبى، السابق، ص ٦–٨.

إنما كان ومازال المسلمون والمستشرقون على السواء، فى حاجة ماسة، إلى بيان وجه الإعجاز فى «صنعة» technique القرآن.

فهذه الصنعة، هى التى تميزه عن غيره من الكتب أياً كانت، والتى تُظهره للعيان ككتاب أكثر من عادى upnormal، أى كتاب خاص، بمعنى أنه له خصوصية – حتى – فى صنعته، وذلك من زوايا ثلاث على الأقل، كما يلى:

– فهو كتاب يلفظ بلسانه للتعبير عما به، لكنه لا يلفظ إلا بلفظة هو ولغته هو، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(١).

– وهو كتاب يُقرأ، لكنه لا يُقرأ إلا بطريقة قراءته هو، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ... فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾(٢).

– وهو كتاب يُدرس علمياً، لكنه لا يُدرس إلا بطريقة دراسته هو، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٣).

٤٨– دور الصنعة القرآنية :

أما دور هذه الصنعة بالنسبة للقرآن، فهو جعل هذا القرآن مُهيأ بذاته للفهم والذكر ييسر من جانب المخاطبين به عامة وفرادى، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٤).

(١–٤)١٧/القيامة، ١٦ و ١٨/القيامة، ١٩/القيامة، ٢٢/القمر.

إذن لن يكون القرآن مُيسراً للفهم والذكر، ما لم يدرك المسلمون «عناصر» صنعته،أى يدركوا ما يلى:

- ما هى لغة القرآن؟
- ما هى طريقة قراءته؟
- ما هى طريقة دراسته علمياً؟

والمرجع فى هذه العناصر الثلاثة هو القرآن ذاته، وليس مقوله: أن لغة القرآن هى لغة خاتم الرسل التى هى بدورها لغة أهل مكة وقت البعثة. ولا مقولة أن القرآن يُدرس بطريقة دراسة الشعر، التى كانت موجودة لدى العرب قبل نزوله، إذ سميناها تجوزاً «التفسير»، وابتدعنا لها «علم التفسير».

فالقائل فى هاتين الحالتين، لم يقرأ بترو وإمعان قوله تعالى إلى خاتم الرسل: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(١). فالله تعالى علم خاتم الرسل لغة القرآن العربية، التى لا تتطابق مع لغة أهل مكة وقت البعثة. كما علمه الطريقة الخاصة لدراسة القرآن علمياً، وعلمه تلاوة القرآن.

٤٩- لغة القرآن العربية :

وهذه اللغة، لا تقتصر على لغة الإنسان العربية وحدها، إنما هى تضم لغة الإنسان، كما تضم لغة غيره العربية، التى تمثلها ألفاظ: الر و المر و كهيعيص و حم ... إلخ. وهى لغة عربية قائمة بذاتها، وأسبق فى الوجود تاريخياً من لغة الإنسان العربية. وعدد حروفها

---

(١) ١١٣/ النساء.

الأبجدية لا يتجاوز أربعة عشر حرفاً، كلها من غير ذوات النقط عدا ثلاثة هى النون والقاف والياء، وتخلو تماماً من حرف الضاد و – حتى – حرف الدال. وهى لغة الملائكة.

كما أن لغة الإنسان العربية فى القرآن، ليست هى لغة إسماعيل العربية فحسب، والتى تمثل لغة الإنسان فى إعادة خلقها، والتى كان إسماعيل هو أول من تلقاها مباشرة من ربه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة)**(١).

فلغة الإنسان العربية فى القرآن، تضم لغته فى بداية خلقها حيث كان آدم أول من تلقاها من ربه، ولغته فى إعادة خلقها حيث تلقاها إسماعيل من ربه. فمثلاً، بنى البيت العتيق لأول مرة فى «مكة»، وقت أن كان إسمها فى لغة آدم العربية: «بكة».

٥٠- قراءة القرآن :

القرآن كتاب يُقرأ، لكنه لا يُقرأ بطريقة القراءة العادية، إنما له طريقة خاصة لقراءته. وهذه الطريقة حكر عليه وحده، وبالتالى لها نظرية علمية قائمة بذاتها، واشتهرت تسميتها تقليدياً بـ «علم القراءات»، ولو أنها تسمية غير دقيقة اصطلاحياً.

فالطريقة الخاصة لقراءة القرآن، موجودة فيه، ومعروفة اختصاراً واصطلاحاً بـ «التلاوة»، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾(٢).

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٥٠٤ رقم ٢٥٨١.
(٢) ٢/ الجمعة.

والتلاوة بمعناها الاصطلاحى هى القراءة بطريق الترتيل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾(١). والترتيل هو القراءة بأناه، وليس بالعجلة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(٢).

وهذه القراءة الخاصة للقرآن، هى عبادة أصلاً، وبالتالى فهى وجوبية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾(٣).

وهى عبادة مأجورة حرفاً بحرف، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(اقرأوا القرآن. فإنكم تؤجرون عليه. أما أنى لا أقول (الم) حرف. ولكن ألف عشر، ولام عشر ، وميم عشر، فتلك ثلاثون)**(٤).

٥١- طريقة دراسة القرآن علمياً :

القرآن كتاب علم، للتعليم والتعلم، أى للدراسة. لكنه لا يُدرس بطريقة أياً كانت، ولا – حتى – بطريقة دراسة معتادة ومألوفة. إنما له طريقة خاصة لدراسته، ومخصصة لدراسته وحده، أى هى حكر عليه، وبالتالى فهى من عناصر صنعته أصلاً.

وهذه الطريقة العلمية موجودة فى القرآن ذاته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٥). ، وقوله أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٦).

(١-٣) ٤/ المزمل، ١٦/ القيامة، ٢٠/ المزمل.

(٤) الألبانى: السابق، ص ٢٥٧ رقم ١١٦٤.

(٥-٦) ١٩/ القيامة، ٧/ آل عمران.

وهذه الحقيقة يعلمها الراسخون فى العلم، على اعتبار أنه لا يتذكر إلا أولوا الألباب. وهم يقولون آمنا بالله وبقرآنه، كما يقولون أن الكل (أى القرآن وتأويله) من عند ربنا تعالى، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾(١).

إذن هذه الطريقة العلمية، لها نظرية قائمة بذاتها، وموجودة فى القرآن، ولها إسمها الاصطلاحى وهو «علم التأويل»، الذى وأده وأنكره المفسرون اللغويون حتى الآن، كما وأدوا وأنكروا «علم «الصنعة القرآنية» حتى الآن، وكذا «علم الملائكة».

الفرع الثالث

علم

دراسة القرآن

٥٢- بداية وإعادة خلقه :

علم التأويل، كأى خلق وكل خلق، له بداية وإعادة، مصداقاً لقوله تعالى: : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾(٢). وعلينا إذن أن نبحث عن نشأته الأولى ونشأة الأخرى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

---

(١) ٧/ آل عمران.

(٢-٣) ١٣/ البروج، ٢٠/ العنكبوت.

٥٣- بداية الخلق :

النشأة الأولى لعلم التأويل، كانت فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وكان أول من تلقاه مباشرة من ربه، هو الخضر، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن الخضر: ﴿..... وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(١).

ثم كان أول من تتلمذ فيه هو موسى، الذى سماه «علم الرشد»، مصداقاً لقوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(٢).

وقد تتلمذ موسى على يد الخضر، الذى لم يكن نبياً أو رسولاً أو ملكاً، لكنه تلقى هذا العلم مباشرة من ربه، وسماه «علم التأويل»، واختصاراً «التأويل» مصداقاً لقوله تعالى على لسان الخضر إلى موسى: ﴿... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ...﴾(٣)، وقوله: ﴿... ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ ...﴾(٤).

وهذا العلم، هو مجموعة قواعد علمية تقريرية، أى لا تأمر ولا تنهى. وقواعد الخضر التأويلية، مقننة فى الآيات ٦٠- ٨٢ من سورة الكهف، أى أن تلك الآيات خاصة بـ «نظرية الخضر العلمية».

فمثلاً، من هذه القواعد قاعدة : المتهم برئ حتى تثبت إدانته يقيناً، وبالتالى فقبل ثبوت إدانته قضاءً هو برئ، حتى لو شوهد هذا المتهم وهو يرتكب جريمته، بل – حتى – لو كانت الجريمة التى

(١-٤) ٦٥/ الكهف، ٦٦/ الكهف، ٧٨/ الكهف، ٨٢/ الكهف.

ارتكبها هى قتل نفس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾(١).

٥٤- إعادة خلقه :

والنشأة الآخرة لعلم التأويل، كانت بعد عصر الخضر وموسى بألفى سنة تقريباً، أى فى العقدين الثانى والثالث وصدر الرابع من القرن السابع الميلادى (٦١٠-٦٣٢م). وكان خاتم الرسل هو من تلقاه مباشرة من ربه، وتلك هى «نظرية محمد التأويلية».

ويتصدر هذه النظرية، قاعدة: سمو القانون الإلهى (القرآن والسنة) على التشريع الوضعى، بما يترتب على ذلك من آثار، كما يلى:

١- أولوية القانون الإلهى (القرآن والسنة) على التشريع الوضعى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ...﴾(٢). فأولوا الأمر، هم أولوا الأمر والنهى القانونيين، أى البرلمان.

٢- مرجعية القانون الإلهى (القرآن والسنة) بالنسبة للتشريع الوضعى، لكى يكون الأخير متفقاً - أو بالأقل غير متناقض - مع الأول، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿.... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ ...﴾(٣).

(١-٢) ٧٤-٧٥ الكهف، ٥٩/ النساء.
(٣) ٥٩/ النساء.

٣- وهذه القاعدة بفرعيها، هى قاعدة تأويلية، بل هى فى صدارة القواعد التأويلية، مصداقاً لقوله تعالى فى نفس الآية وعقب تقرير القاعدة مباشرة: ﴿... ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(١).

٥٥- تأويل الصحابة :

وكان الصحابة يجيدون التأويل. فقد تعلموه فى أكاديمية الأميين للقانون. خذ أمثلة:

- فقاعدة سمو القانون الإلهى، هى قاعدة عامة، فلا يقتصر سريانها على التشريع الوضعى وحده، دون القضاء، أى أن القانون الإلهى يسمو على القضاء. وهذا هو تأويل معاذ بن جبل. وهو تأويل موفق، مصداقاً لحديث خاتم الرسل مع معاذ حال إيفاده إلى اليمن قاضيا:

(قال: كيف تصنع إن عرض عليك قضاء؟. قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم تجد؟. قال: فبسنة رسول الله؟ قال: فإن لم تجد؟. قال: أجتهد رأى ولا آلو. فضرب رسول الله (ص) بيده على صدر معاذ وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله)(٢).

- بل إن هذه القاعدة لا يقتصر سريانها على التشريع الوضعى والقضاء وحدهما، دون السلطة التنفيذية عامة ومؤسسة رئاسة الدولة خاصة. وهذا هو تأويل أبى بكر، مصداقاً لقوله فى أول خطبة له بعد توليه مؤسسة رئاسة دولة عقب وفاة خاتم الرسل: «... أطيعونى ما

---

(١) ٥٩/ النساء.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى.

أطعت الله ورسوله. فإن عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لى عليكم ... إنى متبع ولست بمبتدع». وكذلك قال عمر.

– وكانت أولوية المهاجرين على الأنصار فى تولى مؤسسة رئاسة الدولة عقب وفاة خاتم الرسل، تأويلاً أوله أبو بكر، لقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ...﴾(١). وكذلك كانت أولوية أبى بكر على المهاجرين فى تولى مؤسسة رئاسة الدولة آنذاك، تأويلاً أوله عمر وأبو عبيدة بن الجراح، لنفس الآية، فكانا أول من بايعاه.

– وكان ربط سهم المؤلفة قلوبهم فى الفئ والزكاة بطبيعته الاستثنائية، وربطه بالتالى بقدر الحاجة إلى تأليف قلوبهم، هو تأويل أوله عمر لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء ... وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ....﴾(٢). وقال لهم: «إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ...».

– وكان قصر غنائم الفاتحين للأرض المفتوحة عنوة، على مالا يضر توزيعه عليهم بيت مال المسلمين عامة مستقبلاً، هو تأويل أوله عمر، لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾(٣). ومن ثم اقتصر التوزيع على المنقولات، دون العقارات (الأرض) التى بقيت بيد أصحابها لتدر خراجاً يعود على المسلمين عامة مستقبلاً.

– وكان واجب الدولة المسلمة أن تحارب عصابات مسلميها المرتدين، تأويلاً أوله أبو بكر، لقول خاتم الرسل: (تنتقض عرى الإسلام عروة عروة. فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتى

(١-٣) ١٠٠/ التوبة، ٦٠/ التوبة، ٤١/الأنفال.

تليها. فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة)(١). ومن ثم كانت حروب الردة.

- وكان واجب كبار الصحابة بعدم الخروج من العاصمة إلا بإذن ولضرورة، لكى يكونوا برئاسة الخليفة، أول أمة «رسمية» يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، هو تأويل أوله أبو بكر وعمر، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٢).

فكانت هذه الأمة جهازاً قائماً بذاته من أجهزة الدولة آنذاك، أى جهازاً رسمياً فى عصريهما، وله سلطة الأمر والنهى القانونيين، أى له السلطة التشريعية آنذاك، وبالتالى كان هذا الجهاز برلماناً.

- وكان واجب وجود القضاء، واحترام أحكامه بإطلاق، واستقلاله بذاته، حتى عن الخليفة، تأويلاً أوله عمر، لقوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٣). لذا يؤرخ علمياً لفكرة استقلال القضاء منذ عصر عمر.

- وكان واجب أن يكون نظام مؤسسة رئاسة الدولة، أى الخليفة، هو النظام الجمهورى/ اللاملكى non-King، تأويلاً أوله أبو بكر وعمر لقول خاتم الرسل لرجل جاءه مرتعداً يوم فتح مكة. (هون عليك. فإنى لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)(٤).

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٩٠٥ رقم ٥٠٧٥.
(٢-٣) ١٠٤/ آل عمران، ٦٥/ النساء.
(٤) الألبانى: السابق، ص ١١٨٥ رقم ٧٠٨٥.

لذا قال أبو بكر فى أول خطبة له بعد توليه تلك المؤسسة «**أيها الناس، لقد وليت عليكم ولست بخيركم ...**». وقال عمر فى أول خطبة له بعد توليه: «**أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله، ما تقلدت أمركم**».

وهكذا، بالتأويل تشكلت الملامح العامة للدستور الوضعى فى عهدى أبى بكر وعمر. وهو الدستور الذى أوجبت السنة، الاقتداء به عبر الأجيال، حال وضع الدساتير الوضعية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر**)(١).

٥٦- نطاق تأويل الصحابة :

تأويل الصحابة، لم يتجاوز نطاق مستلزمات الحياة الحاضرة آنذاك، وبالتالى لم يتطرق - مثلاً - إلى «نظرية الخلق» creation، التى قواعدها موجودة فى القرآن والسنة، والتى على المسلمين عامة وفرادى التفكير فيها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى الله**)(٢):

١- وفى صدارة قواعدها، قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ**﴾(٣). وهى قاعدة علمية تقريرية، مقننة قانوناً، ولا تأمر بشئ ولا تنهى عن شئ، لكن مفادها تأويلياً: أن لكل خلق بداية وإعادة، حتى خلق السموات والأرض مثلاً.

(١-٢) الألبانى السابق، ص ٢٥٤ رقم ١١٤٢، ص ٥٧٢ رقم ٢٩٧٦.

(٣) ١٣/ البروج.

٢- إذن، لكل خلق نشأتان متعاقبتان تاريخياً، أى لكل خلق نشأة أولى و نشأة آخرة، ويجب على المسلمين عامة وفرادى النظر فيهما بالنسبة لأى خلق ولكل خلق بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

٣- ومن ثم، فمن كل خلق زوجين اثنين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

ومن كل خلق زوجين، ولو لم يكونا ذكراً وأنثى، كبيت الله فى الأرض مثلاً. كان فى بداية خلقه هو البيت العتيق، وفى إعادة خلقه هو بيت المقدس، وبينهما أربعين سنة كما جاء فى السنة.

٤- إنما من زوجى الخلق ما يكون ذكراً وأنثى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾(٣).

وبدهى أن هذه القاعدة عامة، فلا يقتصر تطبيقها على زوجى الإنسان فحسب، إنما تسرى عليهما، وعلى غيرهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾(٤)، وقوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾(٥).

إنما فى كل الأحوال، لا يتطابق الذكر والأنثى، إنما هما مختلفان عن بعضهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾(٦).

(١-٦) ٢٠/العنكبوت، ٤٩/الذاريات، ٤٥/النجم، ٥٢/الرحمن، ٤٠/هود، ٣٦/آل عمران.

وهذه القاعدة مطلقة السريان، وبالتالى تسرى – حتى – على زوجى الإنسان، بما يترتب على ذلك من آثار، أى مبدأ: عدم مساواة الرجل بالمرأة مطلقاً، لا من حيث الطبيعة البشرية، ولا من حيث الدرجة، ولا من حيث القوامة، ولا من حيث الميراث، ولا من حيث الشهادة أمام القضاء، ولا من حيث المركز القانونى (أى مجموع الحقوق والواجبات)، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

٥٧- مثال: خلق السموات والأرض :

قاعدة : لكل خلق بداية وإعادة، تسرى – حتى – على خلق السموات والأرض، الذى ليس مثل خلق الناس، ولا هو أقل منه، إنما العكس هو الصحيح قرآنياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١):

١- وفى بداية خلقهما، كانتاً رتقاً واحداً، فأتيتا معاً طوعاً لأمر الخالق جل وعلا وقد استوى سبحانه إلى السماء وهى لم تخلق بعد وما زالت أثيراً أو دخاناً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٢).

٢- وفى إعادة خلقهما، أصبحتا مفتوقتين عن بعضهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ...﴾(٣).

(١-٣) ٥٧/ غافر، ١١/ فصلت، ٣٠/ الأنبياء.

- كما أصبحتا مفتوقتين داخلياً، أى من داخلهما، فصارت كل واحدة منهما سبعاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(١)

وقد فتقتهما عن بعضهما وداخلياً، لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، مصداقاً لقول خاتم الرسل على لسان نوح لمّا حضرته الوفاة: (.... قال لإبنه إنى قاص عليه الوصية. آمرك ... بلا إله إلا الله. فإن السموات السبع والأرضين السبع، لو وضعت فى كفه، ووضعت لا إله إلا الله فى كفه، رجحت بهن لا إله إلا الله. وأن السموات السبع والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة، فصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده).

٣- وبداية وإعادة خلقهما، لما يستغرق أكثر من ستة أيام، ولا أقل منها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(٢): لكن ليس ستة أيام مما يعده الناس، إنما ستة أيام مما يعده الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢).

ويوم بهذا المدى الطويل، يأمل المشرك أن يحياه فى الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

---

(١) ١٢/ الطلاق.

(٢-٣)٥٤/ الأعراف، ٤٧/ الحج، ٩٦/ البقرة.

وهو لن يُعمره، ولم يُعمره إنسان قط، حتى أطول الناس عمراً وهو آدم، الذى عمر ألف سنة إلا أربعين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(... فكان آدم يعد لنفسه. فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد تعجلت قد كتب لى ألف سنة. قال: بلى. لكنك جعلت لابنك داود أربعين سنة ....)**(١). ومن ثم كان عمر آدم أطول – حتى – من عمر نوح، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾**(٢).

٥٨- مثال آخر: موضع العرش الإلهى :

عرش الرحمن شئ، وكرسى الرحمن شئ آخر، ولكل منهما اصطلاحه الخاص، ولا يجب الخلط بينهما مطلقاً.

والكرسى الإلهى فى بداية خلقه، كان يسع السموات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾**(٣).

أما فى إعادة خلقه، فأصبح يسعهما، ويسع معهما الجنة بعرضها المقنن قرآنياً، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾**(٤)، وقوله: **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾**(٥).

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٩٢٤ رقم ٥٢٠٨، ص ٩٢٥ رقم ٥٢٠٩.

(٢) ١٤/ العنكبوت.

(٣-٥) ٢٥٥/ البقرة، ١٣٣/ آل عمران، ٢١/ الحديد.

بهذا، ففى الكرسى: الأرض، فوقها السموات، التى فوقها الجنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾([١])، وقول خاتم الرسل: (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله. ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس. فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)([٢]).

وعرش الرحمن شئ، وموضعه شئ آخر. وهذا الموضع فى إعادة خلقه، أصبح فوق الكرسى الإلهى وذلك على نحو ما هو مستفاد تأويلياً فيما تقدم. أما هذا الموضع فى بداية خلقه، قبل خلق السموات والأرض، فكان فوق الماء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾([٣])، وقول خاتم الرسل: (كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)([٤]).

والعرش الإلهى، موضوع فى موضعه، على ساقه، التى لا يُكشف عنها إلا يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ

([١]) ٢٢/الحاقة وكذا ١٠/الغاشية.

([٢]) الألبانى: السابق – ص ٤٢٧ رقم ٢١٢٦.

([٣]) ٧/ هود.

([٤]) الألبانى: السابق، ص ٨٢٦ رقم ٤٤٧٤.

ذِلَّةٌ ...﴾(١). وقول خاتم الرسل: **(لا تخيروا بين الأنبياء - فإن الناس يصعقون يوم القيامة. فأكون أول من تنشق عنه الأرض. فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش. فلا أدرى، أكان فيمن صعق، أم حوسب بصعقته الأولى؟)**(٢).

ويومها يكون العرش محمولاً بملائكة ثمانية تحديداً، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾**(٣).

وقبل ذلك، هو محمول بملائكة وحوله ملائكة يسبحون، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾**(٤)، وقوله: **﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾**(٥).

ويصف لنا خاتم الرسل أحد حملة العرش، بقوله: **(أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش. رجلاه فى الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام. يقول ذلك الملك سبحانك حيث كنت)**(٦).

---

(١) ٤٢-٤٣/ القلم.

(٢) الألبانى: السابق، ص ١٢١٥ رقم ٧٢٥٧.

(٣-٥) ١٧/ الحاقة، ٧/ غافر، ٧٥/ الزمر.

(٦) الألبانى: السابق، ص ٢٠٨ رقم ٨٥٣.

كما أذن له أيضاً، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أذن لى أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك. فيرد عليه: لا يعلم ذلك من حلف بى كاذباً)([1]).

ويقول خاتم الرسل: (ألا أدلك على كلمة من تحت العرش، من كنز الجنة؟. تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فيقول الله: أسلم عبدى واستسلم)([2]).

٦١- مثال: خلق مريم ابنة عمران :

خلقها، كأى خلق وككل خلق بإطلاق، له بداية وإعادة، وذلك على التفصيل التالى:

١- فمريم فى بداية خلقها، الذى كان فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، هى مريم أخت موسى وهارون، وابنة عمران الذى كان من بنى إسرائيل فى مصر آنذاك.

والقرآن لم يكنها إلا بأخت موسى فحسب، مصداقاً لقوله تعالى على لسان أمها: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ ...﴾([3]). وقد ذكرها القرآن، لدورها بالنسبة لموسى وأمه، ويتمثل فى ثلاثة أمور، كما يلى:

أ - إذ قصت أثر موسى الرضيع، حتى رأته خلسة وخفية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾([4]).

([1-2]) الألبانى: السابق، ص ٣٥٢ رقم ١٧١٤، ص ٥١٠ رقم ٢٦١٤.

([3-4]) ١١/ القصص، ١١/ القصص.

ب – وأشارت عليهم بمن يتولى رضاعته وكفالته ونصحه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾(١).

جـ – وكانت وسيلة لإعادة أخيها إلى أمها كما أُوحى إليها قبل أن تلقيه فى اليم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وبهذا، فمريم قامت بعمل صالح لأخيها ولأمها، وبالتالى فهى من الصالحات.

٢– ومريم فى إعادة خلقها، التى كانت قبل الميلاد بعقدين أو أكثر تقريباً، هى مريم أم المسيح، ابنة عمران الذى كان من بنى إسرائيل فى الناصرة، ولم يكن له أى أولاد عداها.

وكما سُمى عمران هذا على إسم عمران والد هارون وموسى، فإنه هو – بدوره – سمى ابنته الوحيدة على اسم مريم أخت هارون وموسى، نزولاً على تقليد متبع آنذاك لالتماس البركة للمواليد، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)(٣). وكان بين عمران وعمران ومريم ومريم ثلاثة عشر قرناً من الزمان، قبل الميلاد.

(١-٢) ١٢/ القصص، ١٣/ القصص.

(٣) الألبانى: السابق، ص ٤٧٩ رقم ٢٤٤٢.

وكان عمران الأخير من الصالحين، وبالتالى كُنيت به مريم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾(١). كما كُنيت به امرأته، أم مريم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾(٢).

كما كُنيت مريم قرآنياً، بـ «أخت هارون»، وذلك لأسباب ثلاثة، كما يلى:

أ - فلا أحد مطلقاً نادى مريم باسم كُنيتها، إلا الله تعالى، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ ....﴾(٣).

ب - وسبحانه لم يناد مريم باسم كنيتها، إلا من باب التسرية عنها، وتوطئة لتذكيرها بطهارة وعفاف والديها وبالتالى طهارتها وعفافها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٤).

جـ - وسبحانه لم يناد مريم باسم كنيتها، إلا مرة واحدة فى القرآن كله، لتذكيرها أنها من «آل هارون» عليه السلام، أى من ذرية نبى مرسل.

إذ كانت مريم وقتذاك، فى حاجة ماسة إلى التسرية عنها، والتأكيد على طهارتها وعفافها وكذا والديها، والتأكيد - فى نفس الوقت - على أصالة نسبها، وذلك فى مواجهة أمرين:

(١-٤) ١٢/ التحريم، ٣٥/ آل عمران، ٢٨/ مريم، ٢٨/ مريم.

أ - اتهام قومها لها بالبغاء حال إتيانها إليهم حاملة وليدها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾(١).

ب - وشكها فى موثوقية ومصداقية قول وليدها لها حال ولادته، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾(٢).

فهى، وأبوها، ووليدها، من ذرية هارون، وبالتالى فهم من ذرية إبراهيم، حتى المسيح، وذلك مُقنن قرآنياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ .... وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

وبهذا، فلا نسب المسيح هو نسب مجهول، ولا فى نسبه أى حلقة مفقودة، ولا صحة لأى مزاعم أو تخرصات فى هذا الصدد، على خلاف ما تقدم.

٣- ومريم لم تُبشر قبل الحمل بالغلام فحسب، إنما بُشرت باسمه أيضاً، بل بُشرت كذلك بسمة خاصة فى وجهه، مصداقاً لقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .....﴾(٤). أى لامع الوجه على الدوام، مصداقاً لقول خاتم الرسل:

(١-٤) ٢٧/ مريم، ٢٤/ مريم، ٨٤-٨٥/ الأنعام، ٤٥/ آل عمران.

(....فإذا رأيتموه فاعرفوه. رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل)([1]).

٦٢- تنبيه :

قاعدة: لكل خلق بداية وإعادة، هى قاعدة مقننة قرآنياً، وتسرى - حتى - على البلد الحرام، الذى فى بداية خلقه: هى مكة، وفى إعادة خلقه: هى المدينة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لها. وإنى حرمت المدينة، كما حرم إبراهيم مكة. ودعوة لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة)**([2]).

وهذه القاعدة تختلف تماماً عما هو شائع فى الأوساط الوثنية منذ قديم، أى فكرة «تناسخ» و «حلول» الأرواح. فأنصارها لا يتكلمون إلا عن تناسخ وحلول مستمرين إلى ما لا نهاية، ولا يتكلمون عن تناسخ وحلول فى كل المخلوقات، ولا يتكلمون إلا عن تناسخ وحلول فى «الأرواح»، التى لا يعرفون هم ولا غيرهم أى شئ عنها، ولا يعرف أمرها إلا الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .....﴾([3])، وبالتالى ففكرتهم من أفكار اللاعلم أصلاً.

([1-2]) الألبانى: السابق، ص ٩٥٠ رقم ٥٣٨٩، ص ٣١٨ رقم ١٥٢٣.

([3]) ٨٥/ الإسراء.

أما قاعدة: لكل خلق بداية وإعادة، فهى تتسم بسمات تميزها، كما يلى:

١- فهى قاعدة علمية تقريرية، مقننة قانوناً، وبالتالى فهى أكثر موثوقية ومصداقية – حتى – من قاعدة: غليان الماء عند درجة مائة.

٢- وهى قاعدة مطلقة السريان، وبالتالى تسرى على أى خلق وكل خلق بإطلاق، ولو لم يكن هذا الخلق من ذوى الأرواح بمعناه الدقيق.

٣- وهى قاعدة جامدة السريان على أى خلق وكل خلق، بحيث يقتصر الأمر بالنسبة له على مجرد بداية خلق وإعادة خلق، ولا يتجاوز ذلك إلى خلق ثالث، أو استمرارية خلقه إلى ما لانهاية.

٤- والقاعدة تقوم على أن لكل خلق بداية وإعادة، وهما متعاقبتان تاريخياً، لكنهما مستقلتان تماماً عن بعضهما، فلا الأولى تُغنى عن الثانية، ولا الثانية تحل محل الأولى مطلقاً.

المطلب الرابع

هجر

القـــرآن والســـنة

٦٣- تقسيم :

هجر المسلمون القرآن والسنة، فنسوا - حتى - أول درس تلقته أكاديمية الأميين للقانون، كما نسوا آخر درس لقنته تلك الأكاديمية لطلابها. ومن ثم أصبحوا على ما أصبحوا عليه حالياً، أى فى القاع الفكرى تقريباً، وجاءت - حتى - مشاريع انتشالهم من هذا القاع مجرد مشاريع مذهبية أصلاً، أى هى مشاريع اللاإصلاح. ومن ثم تتوزع محتويات هذا المطلب على الفروع الثلاثة التالية:

الفرع الأول: أول درس فى القرآن.

الفرع الثانى : آخر درس فى السنة.

الفرع الثالث : مشاريع اللاإصلاح.

الفرع الأول

أول

درس فى القرآن

٦٤- أول الرسالة :

أول ما تلقته أكاديمية الأميين للقانون، هو التنبيه إلى أمرين جوهريين:

١- نظرية الخلق creation بوجه عام، ونظرية خلق البشر بوجه خاص، ونظرية خلق البشر الطينى (الإنسان) بوجه أخص، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(١).

---

(١) ١-٢/ العلق.

إذ كان عرشه سبحانه على الماء، قبل خلق أى خلق، حتى قبل خلق السموات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(١)

وأراد سبحانه أن يُعرف، بخلقه ولخلقه، مصداقاً لقول تعالى فى حدثث قدسى: [كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبى عرفونى](٢).

٢- نظرية القدر، ونظرية تعلم الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣).

إذ خلق الله القلم قبل أن يخلق أى شئ، واستكتبه مقادير الخلائق، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن أول شئ خلقه الله القلم، فأمره فكتب كل شئ يكون)(٤)، وقوله : (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال يارب ما أكتب؟ - قال : اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد)(٥).

وكان ذلك، قبل أن يخلق الله السموات والأرض، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)(٦)، وقوله أيضاً: كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)(٧).

---

(١) ٧/ هود.
(٢) مشار إليه فى عبد الصبور شاهين: أبى آدم ، دار الإخبار، القاهرة، ٢٠٠١، ص٥.
(٣) ٣-٥ / العلق.
(٤-٧) الألبانى: السابق، ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٦، ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٧، ص٨٠٨ رقم ٤٣٨٠، ص ٨٢٦ رقم ٤٤٧٤.

٦٥- مداد القلم :

وكان مداد هذا القلم هو : الماء، وذلك بمراعاة الاعتبارات التالية::

١- فالماء أصل قائم بذاته، فلا أصل له إلا نفسه، أى أن الماء أصل الماء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إنما الماء من الماء)**(١).

٢- والماء هو الموضع الأول لعرش الرحمن، وبالتالى فإن الأصل فى الماء هو الطهر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الماء طهور لا ينجسه شئ)**(٢)، وقوله: **(إن الماء لا يجنب)**(٣)، وقوله: **(إن الماء ليس عليه جنابة، ولا ينجسه شئ)**(٤).

٣- والماء هو أصل الحياة، مصداقاً لقول تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾**(٥).

٦٦- مداد كتابة القدر :

الماء هو مداد القلم الذى استكتبه الله مقادير الخلائق، وبالتالى فهو مداد القلم ومداد كتابة كلام الله، إنما هو مداد كتابة كلام الله فى شأن مقادير الخلائق فحسب، وليس كلام الله بإطلاق، وذلك بمراعاة أمرين:

أ - فكلام الله لا يستنفده مداد بحر ولو كان يمده بحر آخر، إنما العكس هو الصحيح، أى أن كلامه سبحانه هو الذى يستنفد هذا المداد، مصداقاً لقوله سبحانه: **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾**(٦).

(١-٤) الألبانى: السابق، ص ٤٦١ رقم ٢٣٢٩، ص ٣٩٠ رقم ١٩٢٥، ص٣٩٠ رقم ١٩٢٧، ص ٣٩٠ رقم ١٩٢٦.

(٥-٦) ٣٠/ الأنبياء، ١٠٩/ الكهف.

ب – بل إن كلام الله لا يستنفده أقلام شجر الأرض، ومداد بحر يمده سبعة أبحر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

٦٧- كتابة القدر بالماء :

كتابة القدر بالماء هى حقيقة «علمية»، تعرفها – حتى- الأسماك (الحيتان)، ولا تنساها مطلقاً، ولا تنسى إذن مكان العلماء ولا العلماء:

أ – فلا الحيتان ذات ذاكرة ضعيفة كما يزعم البعض حالياً، ولا الشيطان ينسيها الحقيقة، أو يلهيها عن مكان العلماء، وبالتالى كان قائد رحلة موسى العلمية صحبه فتاه فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، هو: «حوت» مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾(٢).

---

(١) ٢٧/ لقمان.

(٢) ٦٠-٦٤/ الكهف.

ب – ولا الحيتان تنسى العلماء، أولئك الذين يخشون الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾(١). ومن ثم، فهى – حتى – تستغفر لهم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (.... **وإن العالم ليستغفر له من فى السموات، ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء**)(٢).

٦٨– الإيمان بالقدر :

واجب المسلمين عامة وفرادى الإيمان بالقدر، وإلا بطل إسلام من لم يؤمن به، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**إن أول ما خلق الله القلم. فقال له اكتب. قال: يارب ما أكتب؟. قال اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة. من مات على غير هذا فليس منى**)(٣).

وقوله أيضاً: (..... **ولو أنفقت مثل أحد ذهباً فى سبيل الله ما قبله الله منك، حتى تؤمن بالقدر. فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار**)(٤).

ومن ثم، لا يجوز لمسلم أن يخوض فى القدر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (.... **إذ ذكر القدر فإمسكوا**)(٥).

---

(١) ٢٨/ فاطر.

(٢) الألبانى: السابق، ص ١٠٧٩ رقم ٦٢٩٧.

(٣-٥) الألبانى: اسابق، ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٨. ص ٩٣٠ رقم ٥٢٤٤، ص١٥٥ رقم ٥٤٥.

ويجب الإمساك، لأن هناك من يجعل القدر شماعة لأخطائه، وهناك من يُكذب بالقدر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر)(١). وهؤلاء وهؤلاء هم القدرية، وحكمهم مقنن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (القدرية مجوس هذه الأمة. إن مرضوا فلا تعودوهم. وإن ماتوا فلا تشهدوهم)(٢).

٦٩- القدر وحرية الاختيار :

القدر لم يصادر حرية الاختيار لأى من البشر بأنواعه الثلاثة، أى الملائكة والجن والإنس، وبالتالى فلكل منهم حرية الاختيار، وإن اختلفوا فى استخدامها وتنوعوا إلى ثلاثة أصناف:

١- صنف اختار الصواب بإطلاق، واختار عدم العدول عنه بإطلاق، وذلك هو البشر السماوى، أى الملائكة، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنهم:﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣)، وقوله ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٤).

علماً بأنهم مكرمون، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنهم: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾(٥). وهم بهذا مثلهم مثل بنى آدم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...﴾(٦).

٢- أما البشر الأرضى بنوعيه، فإنه على صنفين، رغم أنهم خلقوا لعبادة الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٧).

(١-٢) الألبانى: السابق، ص ٦٨٤ رقم ٣٦٦٩، ص ٨١٨ رقم ٤٤٤٢.
(٣-٤) ٦/ التحريم، ٢٧/ الأنبياء.
(٥-٧) ٢٦/ الأنبياء، ٧٠/ الإسراء، ٥٦/ الذاريات.

أ – فصنف اختار الخطأ، واختار التوبة عنه بإطلاق. ومن هؤلاء إنس، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابين)**(١). ومنهم أيضاً، جن، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم فى مطلع القرن السابع الميلادى: **﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا. وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾**(٢).

ب – وصنف اختار الخطأ بإطلاق، واختار عدم التوبة عنه بإطلاق، وهؤلاء شياطين الإنس والجن، وأعداء الأنبياء، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾**(٣)، وقوله: **﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وجبريل وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾**(٤).

ومن ثم، يقول خاتم الرسل بالنسبة لصنفى الإنس بوجه خاص: **(خلق الله آدم، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم اللبن. ثم ضرب كتفه اليسرى، فخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم. قال: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى. وهؤلاء فى النار ولا أبالى)**(٥).

علماً بأن القدر، ليس حكراً على البشر وحده، دون غيره من المخلوقات، مصداقاً لقول تعالى: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**(٦)،

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٨٣١ رقم ٤٥١٥.
(٢-٤) ١٣-١٥ / الجن، ١١٢/ الأنعام، ٩٨/ البقرة.
(٥) الألبانى: السابق، ص ٦١٥ رقم ٣٢٣٤.
(٦) ٤٩/ القمر.

وقوله: ﴿..... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(١).

٧٠- آخر الرسالة :

وبدهى أن من لم يعرف أول الرسالة المحمدية بعد، أى لم يعرف التنبيه إلى «نظرية الخلق» التى من مباحثها «نظرية كتابة مقادير الخلائق»، فإنه لن يعرف آخر تلك الرسالة تحديداً.

فآخرها هو التنبيه إلى أن الدين الإلهى (الإسلام) – كأى خلق وككل خلق بإطلاق – كانت له بداية، وأصبحت له إعادة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(٢):

١- فبداية خلق الإسلام (التوحيد)، قديمة فى التاريخ، بل هى أسبق فى الوجود تاريخياً – حتى – من البشر بأنواعه: أى الملائكة والجن والإنس.

– فالإسلام قديم قدم «شهادة» صاحبه، وهو الله تعالى: الذى شهد لنفسه بنفسه بالألوهية والوحدانية وبقيامه بالقسط، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ..... قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٣). والمستفاد تأويلياً من ذلك ما يلى:

---

(١) ٢/ الفرقان.

(٢-٣) ٣/ المائدة، ١٨/ آل عمران.

- أن الإسلام، هو الدين الإلهى، أى دين الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(١). ومن ثم، فما عدا الإسلام من دين، ليس ديناً إلهياً، وليس إسلاماً إذن، وبالتالى فهو دين محظور قانوناً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢).

- فما عدا الإسلام من دين، هو دين الكفر، الذى هو نقيض الدين الإلهى (الإسلام)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ .... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(٣).

- والدين قائم على الاختيار، وليس قائماً على الإجبار، ولا قائماً - حتى - على الإكراه، مصداقاً لقوله تعالى:﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٤). على أن هذا الاختيار محصور بين أمرين لا ثالث لهما: فإما الدين الإلهى (الإسلام)، وإما دين الكفر، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾(٥).

ب - ثم تبعه سبحانه، البشر السماوى، أى الملائكة، الذين شهدوا جميعاً بألوهية الله ووحدانيته وقيامه بالقسط، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ .... قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٦).

(١-٣) ١٩/ آل عمران، ٨٥/ آل عمران، ١ و ٦/ الكافرون.

(٣-٦) ٢٥٦/ البقرة، ٢٩/ الكهف، ١٨/ آل عمران.

جـ – ثم تبعه سبحانه، الرسل وغيرهم، أولئك الذين تلقوا مباشرة من ربهم العلم، وهم «أولوا العلم»، وكانوا – بالتالى – أوائل من شهدوا بعد الملائكة، بألوهيته سبحانه ووحدانيته وقيامه بالقسط، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ... وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١):

– فكان آدم مسلماً، ولقيه خاتم الرسل فى السماء ليلة أُسرى به. وكان نبياً، وتلقى من ربه علم اللغة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾(٢). وكانت اللغة العربية فى بداية خلقها، أى اللغة العربية «غير المبنية»، التى موجود منها ألفاظ فى القرآن الكريم، وبالتالى فهى واحدة من لغات القرآن العربية.

– وكان نوح مسلماً، مصداقاً لقوله تعالى على لسان نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣). وقد تلقى نوح من ربه، علم تكنولوجيا النقل البحرى، أى بناء السفن، وشحنها بالركاب والبضائع، وسيرها ومرساها، وتفريغها، وقانون الطفو والغرق.

– وإبراهيم أسبق فى الوجود تاريخياً من اليهود والتوراة، ومن النصارى والإنجيل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٤). ومن ثم، لم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، إنما كان

(١-٣) ١٨/ آل عمران، ٣١/ البقرة، ٧٢/ يونس.

(٤) ٦٥/ آل عمران،

مسلماً، مصداقاً لقوله تعالى:﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(١).

- وكان يعقوب (إسرائيل) والأسباط مثلما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحق، مسلمين، مصداقاً لقوله تعالى على لسان الأسباط: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢).

- وكان موسى وهارون وأتباعهما مسلمين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (انتسب رجلان على عهد موسى. فقال أحدهما أنا فلان بن فلان، حتى عد تسعة، فمن أنت لا أم لك؟. قال: أنا فلان بن فلان بن الإسلام. فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم فى النار. وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة، فأنت ثالثهما فى الجنة)(٣).

- وكان داود وسليمان مسلمين، مصداقاً لقوله تعالى على لسان سليمان: ﴿..... وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(٤).

- وكان عيسى والحواريون، مسلمين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥).

(١-٢) ٦٧/ آل عمران، ١٣٣/ البقرة.
(٣) الألبانى: السابق، ص ٣١٢ رقم ١٤٩٢.
(٤-٥) ٤٢/ النمل، ٥٢/ آل عمران.

٢- والإسلام فى إعادة خلقه، شهد به الله، كما شهدت به الملائكة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(١).

وكان خاتم الرسل أول من أسلم، وبالتالى أول المسلمين من البشر الأرضى بنوعيه (الإنس والجن)، مصداقاً لقوله تعالى على لسان خاتم الرسل: ﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾(٢)، وقوله أيضاً: ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤).

ومن ثم، كان وسيظل خاتم الرسل وحده، دون غيره بإطلاق، هو الأسوة الحسنة بإطلاق، للمسلمين بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٥).

وقد استغرقت إعادة خلق الإسلام، أكثر من عشرين عاماً، لكى يتم ويكتمل ويحوز رضاء الله تعالى، قبل وفاة خاتم الرسل بأشهر معدودة، وبعد وفاة المسيح (٣٣م) بستة قرون تقريباً، وبعد وفاة موسى وهارون بألفى سنة تقريباً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(٦).

فإعادة خلق الإسلام، كانت عملاً ضخماً للغاية، وبالتالى لم يلق قبولاً من أعدائه على اختلاف انتماءاتهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ

(١-٦) ١٦٦/ النساء، ١٤/ الأنعام، ١٢/ الزمر، ١٦٣/ الأنعام، ٢١/ الأحزاب، ٣/ المائدة.

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

بل إن هذا العمل الضخم لم يلق – حتى – سلاماً من أعدائه على اختلاف إنتماءاتهم، وبالتالى سعوا إلى وأده ولو بالقتال، وهو الأمر الذى استلزم قتالهم دفاعاً عن هذا العمل الضخم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(٣)، وقوله: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾(٤)، وقوله: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾(٥)، وقوله: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾(٦).

٣- والإسلام فى إعادة خلقه، أصبح الدين الإلهى النهائى، أى الإسلام الكامل والتام والحائز لرضاء الله. وهو يتميز – حتى – عما كان موجوداً قبله من إسلام، الذى لم يعد «ديناً إلهياً»، إنما أصبح مجرد «ملة إلهية»، مصداقاً لقوله تعالى بشأن دين إبراهيم ودين موسى ودين عيسى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾(٧)، وقوله: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(٨). ومن ثم، فلا يصح الكلام عن وجود «أديان» متعددة حالياً.

---

(١) ٣٣/ التوبة وكذا ٢٨/ الفتح وكذا ٩/ الصف.

(٢-٨) ٢١٦/ البقرة، ١٩٣/ البقرة، ١٩١/ البقرة، ٣٦/ التوبة، ١٩٠/ البقرة، ٧٨/ الحج، ١٢٠/ البقرة.

ونسبة الدين الإلهى النهائى إلى ما سبقه من ملل إلهية، هى نسبة الضعف إلى الواحد الصحيح، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين)([1])، وقوله أيضاً: (أهل الجنة، عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم)([2]).

وهى النسبة المعتمدة فى الأجر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبى (ص) فآمن به، واتبعه وصدقه، فله أجران ....)([3]).

وقوله أيضاً: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين ...)([4]).

أما من أدرك من أهل الكتاب خاتم الرسل، فلم يؤمن به، ولم يتبعه أو يصدقه، فإنه كما يقول خاتم الرسل: (مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل. فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا لك. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوه.

([1-3])الألبانى: السابق، ص ٧٤٣ رقم ٤٠١٥، ص٤٩٥ رقم ٢٥٢٦، ص ٦٨٩ رقم ٣٠٧٣.

([4]) الألبانى: " " ص ٥٤٤ رقم ٢٨٢٠.

فاستأجر أجراء بعدهم. فقال: إعملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر. فعلموا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقى من النهار شئ يسير، فأبوا.

فاستأجر قوماً أن يعلموا له بقية يومهم. فعلموا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كلاهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور)([1]).

الفرع الثانى

آخر

درس فى السنة

٧١- أول درس :

بدهى أن من لم يعرف أول السنة المحمدية، فإنه لن يعرف آخرها.

فأول درس فى السنة، هو التنبيه إلى دورها الوظيفى، ولزوم هذا الدور للقرآن، وبالتالى لا يجوز مطلقاً، الاستغناء عن السنة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن. فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه .....)([2]).

([1]) الألبانى: السابق، ص ١٠١٨ رقم ٥٨٥٢.

([2]) الألبانى: السابق، ص ٥١٦ رقم ٢٦٤٣.

فالقرآن قد أحال إلى السنة، إحالة مُلزمة على الدوام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(١). والمستفاد تأويلياً من هذه الإحالة المُلزمة، ثلاثة أمور كما يلى:

١ - أن السنة ليست فى درجة القرآن قانوناً، إنما هو أعلى منها درجة، وبالتالى فهى أدنى منه درجة، وهو الأمر الذى يترتب عليه ما يلى:

أ - لا تملك السنة أن تحيل إلى القرآن، إنما العكس هو الصحيح.

ب - يجب أن تكون السنة متفقة - أو بالأقل غير متناقضة - مع القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ستختلفون من بعدى. فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله. فما وافقه فمنى. وما خالفه فليس عنى).

٢ - والسنة ليست هى اللائحة التفصيلية للقرآن. فالقصص القرآنى له دوره الثلاثى المقنن قانوناً، حيث هذا القصص هو حكمة الكتاب القرآنى، ودليل موثوقيته ومصداقيته، كما هو لائحته التفصيلية، على السواء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن

---

(١) ٧/ الحشر.

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

فمثلاً، حكمة أن تكون الطلقات ثلاث فى قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾(٢)، إنما تتمثل فى ضرورة الإعذار مرتين قبل الفرقة النهائية، كما جاء فى الحوار بين موسى والخضر فى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ..... قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .....﴾(٣).

ومن ثم، فلا يجوز وقوع الطلقات جملة بعبارة واحدة، أو بعبارات ثلاث متعاصرة، وذلك كان المعمول به فى عصر النبوة، وعصر أبى بكر، وحتى فى سنتين من عصر عمر، الذى عدل عنه، لكنه لم يكن عدولاً موفقاً.

ومثلاً، حكمة قوله تعالى للنساء عامة ولنساء النبى خاصة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾(٤). إنما تتمثل فى أن الأصل فى التحرش الجنسى هو التحرش النسائى، وليس التحرش الرجالى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾(٥).

(١-٥) ١١١/ يوسف، ٢٢٩/ البقرة، ٧٦-٧٨/ الكهف، ٣٣/ الأحزاب، ٢٣/يوسف.

٣- والسنة هى اللائحة التنفيذية للقرآن، أى اللائحة التى تُيسر تطبيقه عملاً، على اعتبار أنه كتاب علم وعمل فى نفس الوقت. وهى لائحته التنفيذية، ولو لم تكن مكتوبة كتابة رسمية ككتابة القرآن رسمياً فى عصر عثمان.

والعبرة فى السنة، ليست بالراوى، إنما هى بالسامع، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه بعيدك منكم، فأنا أبعدكم منه)**(١).

فمثلاً، قول خاتم الرسل لعلى ابن أبى طالب حال ندبه للقضاء: **(إذا جلس إليك الخصمان فسمعت من أحدهما، فلا تقضى لأحدهما حتى تسمع الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت تبين لك القضاء)**(٢).

إنما هو تطبيق عملى مقنن لقوله تعالى فى شأن خطأ داود القاضى وتوبته منه: **﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ. إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ**

(١-٢) الألبانى: السابق، ص ١٦٦ رقم ٦١٢، ص ١٤٤ رقم ٤٦٧٨.

كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾(١).

فداود القاضى، استمع إلى خصم دون الآخر، وحكم بمقتضى علمه الشخصى عن بغى الخلطاء بعضهم على بعض، وذلك أمر لا يجوز للقاضى، الذى كان عليه أن يستمع إليهما معاً.

ومثلاً، قول خاتم الرسل: (كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين فى الجنة)(٢). إنما هو تطبيق عملى مقنن لقوله تعالى فى شأن كفالة مريم اليتيمة قديماً: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾(٤).

ومثلاً، قول خاتم الرسل لرجل جاءه مرتعداً يوم فتح مكة: (هون عليك فإنى لست بملك .....)(٥). إنما هو تطبيق عملى مقنن لقوله تعالى فى شأن مثالب نظام الملكية: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٦).

---

(١) ٢١-٢٤/ ص.

(٢) الألبانى: السابق ، ص ٨٢٠ رقم ٤٤٤٨.

(٣-٤) ٤٤/ آل عمران، ٣٧/ آل عمران.

(٥) الألبانى: السابق، ص ١١٨٥ رقم ٧٠٨٥.

(٦) ٣٤/ النمل.

ومثلاً: قول خاتم الرسل: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)(١). إنما هو تطبيق عملى مقنن لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

٧٢- آخر السنة :

آخر السنة المحمدية بإطلاق، هو التنبيه إلى ما هو بطبعه أدنى منها درجة، ولاحق على وجودها تاريخياً، أى لن يوجد إلا بعد انقضاء عصر النبوة (٦١٠-٦٣٢م)، إنما يجب الاقتداء به باعتباره اللائحة «الفرعية» لها وللقرآن على السواء.

فالسنة أحالت إحالة صريحة وملزمة، إلى الدستور «الوضعى» الذى يسنه أبو بكر وعمر تحديداً. وأوجبت الاقتداء به على الدوام، حال وضع الدساتير الوضعية للمسلمين جيلاً بعد جيل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى، إبى بكر وعمر)(٣):

١- وبدهى أن هذا الحديث، لا يلزمنا بأن نتأسى بأبى بكر وعمر بدلاً من الرسول، ولا - حتى - أن نتأسى بهما مع الرسول، إنما هو يلزمنا - فقط - بأن نعتبر عصرهما بمثابة امتداد «حكمى» لعصر النبوة، مصداقاً لقول خاتم الرسل:

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٥٧٦ رقم ٣٠٠٣.
(٢) ١١/ التحريم.
(٣) الألبانى: السابق، ص ٢٥٤ رقم ١١٤٤.

(بينما أنا على بئر أنزع منها، إذ جاء أبو بكر وعمر. فأخذ أبو بكر الدلو فنزع ذنوباً أو ذنوبين. وفى نزعه ضعف. فغفر الله له. ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبى بكر. فاستحالت فى يده غرباً. فلم أر عبقرياً يفرى فريه، حتى ضرب الناس بعطن)(١).

فهما لم يكونا طالبين من نُجباء أكاديمية الأميين للقانون فحسب، إنما أيضاً كانا الأكثر التصاقاً بالمعلم فى تلك الأكاديمية، بل كانا – حتى – بمثابة ظله الظليل فى الرواح والمجئ، مصداقاً لقول خاتم الرسل فيما رواه على بن أبى طالب، بقوله كنت أسمع رسول الله (ص) يقول: **(كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر)**.

ولولا أغلقت الأبواب، لكان أحدهما خليلاً للرسول، وكان الآخر نبياً بعده، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت ابن أبى قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله)**(٢)، وقوله أيضاً: **(لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب)**(٣).

٢- ودستورهما الوضعى، لم يكن دستوراً مكتوباً، إنما كان دستوراً غير مكتوب، أى دستوراً عرفياً، كما هو شأن الدستور الإنجليزى – مثلاً – فى الوقت الحاضر، لكن بينهما اختلافات جوهرية:

(١-٣) الألبانى: السابق، ص ٥٥٠ رقم ٢٨٦٥، ٩٣٧ رقم ٥٢٩٦، ص٩٣٥ رقم ٥٢٨٤.

أ - فدستورهما، لم يأخذ فى نظام مؤسسة الرئاسة، بالنظام الملكى كانجلترا وغيرها، ولا - حتى - بالنظام الجمهورى/ الملكى الذى اشتهرت تسميته تجوزاً بـ«النظام الرئاسى»، إنما كان يأخذ بالنظام الجمهورى/ اللاملكى، الذى اشتهرت تسميته اختصاراً واصطلاحاً بـ«الخلافة».

ب - ودستورهما، لم يأخذ فى نظام البرلمان، بنظام البرلمان الإنجليزى أو الغربى أى نظام البرلمان النيابى، إنما كان يأخذ بنظام البرلمان اللانيابى، الذى لا يتكون - ممن هب ودب - بطريق انتخاب أعضائه بواسطة الناس، إنما كان يتكون بطريق اصطفاء أعضائه وفق شروط دقيقة، أدق - حتى - من شروط عضوية الهيئة القضائية.

جـ - ودستورهما، كان يأخذ بنظام العدالة الاجتماعية، أى عدالة التوزيع، حتى فى توزيع الجوع والشبع.

٣- وهذا الدستور الوضعى، لم يحظ بعد بالدراسة العلمية، وانشغل الناس عنه بالسيرة الشخصية لأبى بكر وعمر، ومن جاء بعدهم.

وعبثاً يجرى حالياً البحث فى مصر وليبيا وتونس وغيرها، عن دستور وضعى فى فرنسا أو انجلترا أو أمريكا أو جنوب أفريقيا أو إيران أو تركيا، لكى يُحتذى به. لا لشئ، إلا لأننا نسينا آخر درس فى السنة المحمدية، كما نسينا أول درس فيها.

الفرع الثالث

مشاريع اللاإصلاح

٧٣- مشاريع المذهبيين :

المذهبيون فى العالم العربى والإسلامى المعاصر، هم الأعلى صوتاً، وبالتالى فهم يحتكرون فكرة مشاريع الاصطلاح، رغم أنهم الأكثر هجراً للقرآن والسنة، وبالتالى فإن ما يقترحونه من مشاريع، إنما هى مشاريع اللاإصلاح.

فمشاريعهم ثلاثة، على حسب الثلاثية التى تجمع حولها المذهبيون فى الاثنين وسبعين فرقة، تلك الفرق الذى وردت فى حديث خاتم الرسل، والتى بلغت نسبة بطلان أعمالها $\frac{72}{73}$، أى كلها باطلة تقريباً.

٧٤- ثلاثة مشاريع :

المذهبيون الإسلاميون مجموعون فى خندق واحد، وفرحون بمسمى «التيار الإسلامى». وهم متقلون بموروثات الماضى البعيد والقريب، ويتوهمون صحة منطلقهم إلى الإصلاح.

وهم يتصورن أن لدى المسلمين ما يكفيهم على الدوام، وما يغنيهم عن أى زيادة حتى يوم القيامة، من «التراث الإسلامى» و «الفقه الإسلامى» و «أصول الفقه الإسلامى» و «الفلسفة الإسلامية» و «السير الشخصية» لبعض المسلمين القدامى والمحدثين الذين يُعتبرون فى حكم الأسلاف أو الآباء أو المرشدين أو الأفذاذ ... إلخ.

ومن ثم، لم يعد على عقلاء المسلمين إلا مجرد «تدوير» تراثهم وفقههم وفلسفتهم وسيرهم الشخصية، بإسم «إحياء التراث الإسلامى» أو «تجديد الفقه الإسلامى» أو «تجديد الخطاب الدينى» ... على حسب الأحوال.

أى أن على عقلاء المسلمين مجرد إعادة إنتاج ما سبق إنتاجه قديماً، لكن فى ثوب جديد لغوياً وإنشائياً وبلاغياً، وفاء لأولئك الأفذاذ، الذين على أكتافهم قام المجد الإسلامى قديماً.

وبهذا، لا يختلف المذهبيون الإسلاميون كثيراً، عن المذهبيين الآخرين، الذين تجمعوا فى خندق واحد، فرحون بمسمى «التيار العلمانى»، ولو أنهم مثقلون بمورثات أخرى من ماض بعيد وقريب ومتداولة – حتى – فى الغرب.

فهؤلاء وهؤلاء متفقون – بهذا – على «هجر» ثوابت ثوابت المسلمين، أى هجر القرآن والسنة، والاستعاضة عنها بالموروثات traditions . وكل ما بينهم من اختلاف، هو مجرد اختلاف حول «طبيعة» الموروثات، التى يستعاض بها عن تلك الثوابت: فهل تكون الموروثات العربية/ الأموية/ العباسية/ الفاطمية/ العثمانية/ الإسلامية، أم تكون الموروثات الغربية/ الإغريقية/ الرومانية، الكنسية؟

بل إن هؤلاء وهؤلاء لا يختلفون كثيراً عن مذهبيين آخرين، تجمعوا فى خندق ثالث، وفرحوا بمسمى «التيار الأوسط»، وانبهروا بفكرة «وسطية الإسلام»، وفكرة لم الشمل فى «بيت العائلة

الوطنية». وهم متقلون بالموروثات العربية والموروثات الغربية معاً، ومهتمون بالتوفيق بين هذه وتلك.

فهذا التيار الأخير عينه على الموروثات، وظهره إلى ثوابت ثوابت المسلمين، أى القرآن والسنة.

٧٥- ضحايا تصورات اللغويين العرب :

المذهبيون والمسلمون ضحايا اللغويين العرب، وتصوراتهم الخاطئة منذ قديم.

إذ ليس القرآن كتاب لغة عربية بأسلوب شعرى له حلاوة وطلاوة وله عجائبه، كما تصور اللغويون العرب منذ قديم، وتصوروا – بالتالى – أنه لولا توسطهم بين هذا الكتاب اللغوى وبين المسلمين ما أمكن لهؤلاء أن يفهموه مطلقاً.

علماً بأن ما قدمه هؤلاء للقرآن على امتداد أكثر من ألف ومائتى عام، لم يكن شيئاً ذا بال، إنما مجرد «ترجمة» للغة القرآن العربية إلى لغة عربية أبسط منها، ولو اشتهرت تسمية تلك التراجم اللغوية بـــ «تفاسير القرآن»:

١- وليت ما قدموه لم يكن قائماً على «خطأ» من أربع زوايا على الأقل :

أ - إذ تصوروا أن لغة القرآن قابلة للاستقلال تماماً عن مضمونه، وتكون – حتى – هى المدخل إلى ذاك المضمون، الذى

يقتصر على موضوعين اثنين لا ثالث لهما هما: العبادات والمعاملات.

وكأن القرآن بهذا، قد نزل مقسماً، لكى يقتسمه اللغويون أولاً، فالدينيون بعدهم، فالفقهيون من بعد، ويقتسموه فيما بينهم، ودون غيرهم، وكأن القرآن نازل لهم أولاً على الأقل.

ب – وتصوروا أن لغة القرآن العربية هى لغة أهل مكة وما حولها وقت نزوله، وكأنه لا توجد فى القرآن لغة عربية أخرى.

جـ – وتصوروا أن «كل» لغة القرآن فى حاجة إلى ترجمتها لغوياً، وليس بعض ألفاظ وعبارات القرآن هى – فقط – التى تحتاج إلى ترجمتها لغوياً، وكأن كل لغة القرآن صعبة إلا على المتخصصين من اللغويين.

د – وتصوروا أن المرجع فى ترجمة القرآن لغوياً (التفسير)، هى أبيات الشعر الموجود قبل نزوله، وكأن طريقة دراسة القرآن هى نفس طريقة دراسة الشعر قبل نزول القرآن، وتلك الطريقة يجيدها اللغويون وحدهم.

٢- وليتهم – حتى – لم يقدموا ما قدموه أصلاً، وتسبب تباعاً فى إلهاء المسلمين عن القرآن ذاته، فهجروه، مصداقاً لقوله تعالى على لسان خاتم الرسل: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(١).

---

(١) ٣٠/ الفرقان.

ولما هجروه، نسوا – حتى – أن يسألوا: هل موضوعات القرآن والسنة، تقتصر على الموضوعين المعهودين وهما: العبادات والمعاملات، وبالتالى لا يوجد فى القرآن والسنة موضوعات أخرى حجبتها تفاسير القرآن؟

– وماذا عن الدرس الأول فى القرآن والذى تلقاه خاتم الرسل فى غار حراء، وهو التنبيه إلى «نظرية الخلق» بوجه عام و «نظرية البشر» بوجه خاص، و «نظرية الإنسان» بوجه أخص، ويتصدر تلك النظريات «نظرية كتابة مقادير الخلائق بالقلم»؟. علماً بأن هذه الموضوعات، لا هى لغة، ولا هى عبادات، ولا هى معاملات؟

– وماذا عن «علم الحكمة»، الذى علمه الرسول للصحابة، والذى هو الركن الأول من أركان «الدعوة إلى سبيل الله»؟

– وماذا عن «علم التأويل»، الذى لا يعلمه إلا الله، والذى وضعه الله فى القرآن ذاته، ويؤمن الراسخون فى العلم بأن الكل (أى القرآن وتأويله) من عند الله؟

– وماذا إذن عن آخر درس فى القرآن؟. وماذا عن أول درس فى السنة المحمدية، وآخر درس فيها؟

– وماذا عن نظام التأسى بخاتم الرسل، أى بالأسوة الحسنة؟ فهل جائز الاستعاضة عنه بغيره، أو – بالأقل – إشراك غيره معه: كتأسى الشيعة بعلى أو بأحد من ذريته على حسب الأحوال. وتأسى السنيين بأبى حنيفة أو الشافعى أو مالك على حسب الأحوال. وتأسى السلفيين بابن حنبل أو ابن تيمية أو ابن قيم أو محمد بن عبد الوهاب

فى السعودية على حسب الأحوال. أو تأسى الأخوان بحسن البنا أو سيد قطب على حسب الأحوال، أو تأسى القوميين والناصريين بعبد الناصر. أو – حتى – التأسى بشخص أجنبى، كتأسى ابن سينا قديماً بأفلاطون، وتأسى ابن رشد قديماً بأرسطو ..... إلخ؟

٧٦- كيفية الإصلاح الرشيد :

العبرة فى مشروع الإصلاح، لا هى بالمشروع أياً كان، ولا هى بالإصلاح أياً كان، إنما هى بالرشادة فى هذا وذاك، أى يجب أن يكون مشروعاً للإصلاح الرشيد.

والإصلاح الرشيد حالياً، يكمن – ابتداءً – فى الحل الذى يُخرج المسلمين عرباً وعجماً عامة وفرادى، من ثلاث دوائر مفرغة، يدورون فيها منذ قديم حتى الآن، وهى:

١- دائرة المذهبية. فرغم أنه: لا مذهبية فى القرآن والسنة والإسلام، وبالتالى فوجودها باطل بطلاناً مطلقاً كما جاء فى حديث خاتم الرسل، لكنها موجودة، وتتنامى بمرور الزمان، خاصة بعد أن أصبحت لها «منظمات» محلية وإقليمية وعالمية.

٢- دائرة الكهنوت. فرغم أنه لا كهنوت فى القرآن والسنة والإسلام، وبالتالى فوجوده باطل بطلاناً مطلقاً، لكنه موجود فى صورة «وساطة» اللغويين والأصولى دينيين والفقهيين ومن تبعهم من العوام، أى وساطتهم بين القرآن والسنة والإسلام وبين المخاطبين بهم عامة وفرادى.

ولو لم يكن الكهنوت موجوداً، ما كانت – مثلاً – ظاهرة إطلاق لحى رجال المسلمين، التى هى من مستلزمات الكهنوت، خاصة أن خاتم الرسل لم يضع نظاماً للحى الرجال.

فخاتم الرسل أوجب – فى زمن لم تكن فيه بطاقة الهوية الشخصية موجودة بعد – التمييز بين رجال المسلمين والمشركين، ولو بإطلاق اللحى، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: **(خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب، وأوفروا اللحى)**([1]).

أما بعد وجود نظام بطاقة الهوية الشخصية، التى هى بطاقة رسمية، وبها خانة للديانة، يكتب فيها مسلم أو نصرانى أو يهودى على حسب الأحوال، والتى يعتبر الكذب فيها تزويراً معاقباً عليه، فإنه لم يعد لإطلاق اللحى أى موجب قانوناً، ولا أى داعى إلا الكهانة.

ولو لم يكن الكهنوت موجوداً، ما كانت ظاهرة احتلال ذوى اللحى لدور العبادة، وللمنابر، وللخطابة الإنشائية البلاغية الجوفاء.

٣- دائرة «تدوير» الدراسات البدائية القديمة البالية، التى اتصلت بالمذهبية والكهنوت، وتواصلت مع المذهبية والكهنوت حتى الآن، والتى تمحورت حول القرآن والسنة، وتسببت فى هجرهما، والتى يحترفها اللغويون والأصولى دينيين والفقهيون وغيرهم – حتى – من العوام، ولا يعرفون غيرها حتى الآن، وبالتالى يعز عليهم هجرها وفراقها، ولا يعز عليهم هجر القرآن والسنة.

([1]) الألبانى: السابق، ص ٦١١ رقم ٣٢٠٩.

فهى دوائر مرض متفشى فى النفوس، التى أخذتها العزة بالإثم، حتى أنها لم تلتفت إلى أمرين، هما:

أ - هذا المرض يهودى الأصل، ولو أصبح يهودياً/ نصرانياً بعد ذلك، وبالتالى لا يجوز مطلقاً أن يتفشى بين المسلمين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة. فواحدة فى الجنة، وسبعون فى النار. وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة. والذى نفس محمد بيده، لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة، واثنتان وسبعون فى النار**)([1]).

ب- أن تغيير قوم لنفوسهم واجب عليهم، لكى يُغير الله ما بهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾([2]).

إذن الإصلاح الرشيد يقتضى تطهير النفوس من المذهبية أياً كانت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ .... جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾([3]). فلا يجوز مطلقاً للمسلمين أن يسلكوا مسلك اليهود والنصارى فى التفرق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾([4]). فتفرقهم كان بغياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾([5]).

([1]) الألبانى: السابق، ص ٢٤٥ رقم ١٠٨٢.

([2-5]) ١١/ الرعد، ١٠٣/ آل عمران، ١٠٥/ آل عمران، ١٤/ الشورى.

كما يقتضى تطهير النفوس من الكهنوت، لكيلا نسمع – حتى – ألقاباً كهنوتية: كالإمام الأعظم، والإمام الأكبر، وإمام الدعاة، وإمام الأئمة، وشيخ الإسلام، وحجة الإسلام، والمرشد العام (للثورة أو للجماعة)، وعلماء الإسلام .... إلخ. إذ ليس فى القرآن والسنة أسوة حسنة، إلا خاتم الرسل، وهو وحده، دون غيره.

كما هو يقتضى أن نُلقى وراء ظهورنا، موروثات المذهبية والكنهوت من الاجتهادات والاختلافات، لكيلا نراها مطلقاً، ولكيلا تلهينا عن المستقبل أو – حتى – الحاضر.

٧٧- الأولوية فى الإحياء والتجديد :

والإصلاح الرشيد حالياً، يكمن – انتهاءً – فى الإحياء والتجديد، كما يلى:

١- فالأولوية فى الإحياء، هى للقرآن والسنة، أى إحياء القرآن والسنة، من الهجر الذى ألم بهما، فيجب إذن إحياء الاعتصام بالقرآن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا ..﴾(١). وقول خاتم الرسل فى شأن بيان هذا الحبل: (أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً)(٢).

أى يجب التمسك بالقرآن، وبالتالى التمسك بالسنة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا علىَّ الحوض)(٣).

---

(١) ١٠٣/ آل عمران.
(٢) الألبانى: السابق، ص ٦٩ رقم ٣٤.
(٣) الألبانى: السابق، ص ٥٦٦ رقم ٢٩٣٧.

والتمسك بالقرآن يقتضى دراسته، دراسة مباشرة، ودراسة علمية، وفق الصنعة القرآنية، بعناصرها الثلاثة على نحو ما تقدم بيانه، أى وفق لغة القرآن الخاصة، ووفق قراءته الخاصة، ووفق العلم الخاص بدراسته دراسة علمية، أى علم التأويل.

ووفقاً لعلم التأويل، فإن السنة هى اللائحة التنفيذية للقرآن، وبالتالى لا تجوز دراسته بمعزل عنها، ولا دراستها بمعزل عنه، وإلا وقع الدارس فى التباس شديد، كالالتباس الذى وقع – مثلاً – حول الحديث المشهور تسميته بـ «حديث غمس الذباب»، أى قول خاتم الرسل: (**إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم، فليغمسه كله، ثم يطرحه .....**)(١).

إذ كان يجب وضع هذا الحديث تحت قوله تعالى: ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾(٢). وعندئذ، فهو حديث «سلب الذباب»، وليس حديث «غمس الذباب»(٣). ولا محل للكلام – بعد ذلك – عن أن الحديث يحض أحداً على أكل أو شرب ما وقع وغمس فيه الذباب(٤)، أى ليس فى الحديث حضاً لأحد على استنقاذ ما لا يمكن استنقاذه أصلاً.

فكل الذباب (أى الحشرات الطائرة عامة) سالب إذن، إلا نوع واحد منه، هو الذى يُعطى، ألا وهو النحل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**... يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ**﴾(٥).

---

(١) الألبانى: السابق، ص ٢٠٥ رقم ٩٣٦.
(٢) /٧٣ الحج.
(٣-٤) قارن – مثلاً – معالجة الحديث بالطريقة البدائية: يوسف القرضاوى: السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٨، ص٦٧.
(٥) /٦٩ النحل.

وبهذا، فكل الذباب ضار عدا النحل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(الذباب كله فى النار إلا النحل)**([1]).

٢- والأولوية فى التجديد، هى للدين الإلهى (الإسلام)، أى تجديد هذا الدين الإلهى، ولو تجديداً دورياً على الأقل، كل قرن من الزمان على الأكثر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الله تعالى: يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينها)**([2]).

٣- على أن هذا الإحياء أو التجديد، ليس طليقاً من كل قيد أياً كان باسم الاجتهاد، ولا مقيداً بقيد أياً كان باسم تقليد السلف، إنما هو مقيد بقيد واحد، وقيد مُقنن قانوناً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(قيدوا العلم بالكتاب)**([3]).

والكتاب القرآنى أحال - فى شأن حكمته وتفصيله - إلى القصص القرآنى باعتباره لائحته التفصيلية. كما أحال - فى شأن تطبيقه عملياً - إلى السنة المحمدية باعتبارها لائحته التنفيذية، التى بدورها أحالت إلى دستور أبى بكر وعمر باعتبار أن هذا الدستور هو اللائحة «الفرعية»، ولو أنها بطبعها لائحة وضعية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(أوصيكم بتقوى الله ... فإنه من يعيش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين. تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة)**([4]).

([1]) الألبانى: السابق، ص ٦٤٧ رقم ٣٤٤٢، ٣٨٢ رقم ١٨٧٤، ص ٨١٦ رقم ٤٤٣٤، ص٤٩٩ رقم ٢٥٤٩.

٧٨- دور الشعب فى الإصلاح :

لا أعتقد أن أى شعب فى دولة عربية أو فى دولة إسلامية حالياً، يُفضل استمرار المذهبية والكهنوت باسم الإسلام، على إحياء القرآن والسنة من الهجر الذى ألم بهما وتجديد الدين الإلهى (الإسلام)، لو طُرح الأمر عليه فى استفتاء نزيه.

وهذا الاستفتاء متعلق بأحد الشئون العامة للشعب، هو الشأن العلمى العام، تجاه القرآن والسنة والدين الإلهى (الإسلام)، وبالتالى فهو حق للشعب، وواجب على دولته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(١)، أى فى أمرهم أو شأنهم.

ومن ثم، لا يحق لدولة - أو لأى من أجهزتها من باب أولى - أن تختار من تلقاء نفسها، استمرار المذهبية والكهنوت باسم الإسلام، حتى لو كان هذا الجهاز يعمل فى التعليم والتعلم.

---

(١) ١٥٩/ آل عمران.

الخاتمة

١- الدراسات الموجودة حتى الآن، للقرآن والسنة، لم تعد تليق بهما، وبالتالى أصبحا على ما أصبحا عليه حالياً، أى مهجورين تماماً، اللهم إلا قراءة القرآن فى الصلاة وفى شهر الصيام وفى المآتم وفى الاحتفاليات. وكأن القرآن والسنة، ليسا هما القانون الإلهى المعاصر واجب التطبيق منذ الثلث الأول من القرن السابع الميلادى حتى قيام الساعة.

كما أن هذه الدراسات، لم تعد تليق بالمسلمين عرباً وعجماً، وبالتالى أصبحوا على ما أصبحوا عليه حالياً، من هجر للقرآن والسنة، وكأنهم لم يدركوا – حتى – أن القرآن كتاب علم وعمل، أى كتاب للتعليم والتعلم والعمل بموجبه.

وتلك الدراسات القديمة المتوارثة، لم تتسبب فقط فى هجر القرآن والسنة، إنما تسببت أيضاً فى تفرقة المسلمين فرقاً ومذاهب شتى، بل تسببت – حتى – فى ظهور بدع كهنوتية لدى أرباب التعامل فيها. أولئك الذين نسجوا من قدمها هالة قداسة لها، واحتكروها ميراثاً لهم، واحترفوا التعامل بها مع المسلمين عرباً وعجماً، فصاروا هم «الوسطاء» بين هؤلاء المسلمين وبين القرآن والسنة.

٢- وبهذا أصبحت تلك الدراسات وأرباب التعامل فيها، العقبة التى تحول بين المسلمين عرباً وعجماً وبين تعاملهم المباشر مع القرآن والسنة، فهماً ودراسة علمية.

علماً بأن القرآن بطبعه ميسر للفهم والذكر من جانب المخاطبين به عامة وفرادى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١). وكذا السنة بطبعها ميسرة للفهم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (.... إنما بعثني معلماً ميسراً).

٣- ومن ثم، تصبح المقالة الراهنة بمثابة نصيحة للمسلمين عرباً وعجماً، بأن يطرحوا وراء ظهورهم تلك الدراسات القديمة البالية وأربابها المحتكرين لها، وأن يتجهوا مباشرة إلى القرآن والسنة، لدراستهما دراسة علمية، وفق «الصنعة القرآنية»، وبالأخص «علم التأويل».

وقد حاول المقال أن يثبت للقارئ في عجالة، أن مثل تلك الدراسة العلمية، هي دراسة ممكنة، ودراسة مثمرة، ودراسة واجبة قانوناً، وإلا استمرت النكبة العلمية للمسلمين إلى ما لا نهاية.

﴿وما توفيقي إلا بالله﴾

---

(١) ٤٠/ القمر،

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
المطلب الأول **علم المسلمين** **المنسى والمهجور**	٩
الفرع الأول: أصول دراسة القرآن	١٢
الفرع الثانى: نسيان أصول حضارة المسلمين	٢٧
الفرع الثالث: أثر دراسة القرآن بلا أصول	٣٥
المطلب الثانى **علـــم المسلمـــين** **المعلوم والمختلف فيه**	٦١
الفرع الأول: ضآلة علم المسلمين المعلوم	٦٣
الفرع الثانى: اختلافات المسلمين المذهبية	٧٠
الفرع الثالث: حكم الشريعة فى المذهبية	٧٥
المطلب الثالث **علـــــم المسلمـــين** **المجهـــــول**	٨٣
الفرع الأول: بدائية طريقة دراسة القرآن	٨٥
الفرع الثانى: الصنعة القرآنية	٨٩
الفرع الثالث: علم دراسة القرآن	٩٤

١٨- الدفع بعدم القبول فى قانون المرافعات – رسالة إسكندرية – آلة كاتبة – ١٩٦٨.
١٩- الوجيز فى قانون القضاء المدنى – ط ١ – دار النهضة العربية – ٢٠٠١.
٢٠- التنفيذ الجبرى – ط ٨ – دار النهضة العربية – ٢٠٠١.
٢١- أثر الصفة الأجنبية لعناصر الدعوى المدنية – مجلة روح القوانين – ع٤ – ص ٢٢٥ – ٣٨٣ – سنة ١٩٩١.
٢٢- اعتبار الحجز كأن لم يكن – مجلة روح القوانين ع ٣ – ١٩٩٠ ، ع ٦ – ١٩٩١.
٢٣- الهيئة القضائية وأعوانها – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠٠٩.
٢٤- مركز الشعب والدولة والرئاسة والبرلمان واللغة العربية – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية، ٢٠١٠.
٢٥- مبادئ المحاكم الاقتصادية – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١٠.
٢٦- إعتلال صحة التقاضى فى مصرنا – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – مجلة الحقوق (إسكندرية) عدد خاص – مارس ٢٠١٠.
٢٧- الضوابط القانونية للتعليم المصرى وفق قانون جودته ولائحته – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١٠.
٢٨- انتهاك مبدأ التخصص القضائى فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، بحث قدم فى مشروع كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، بشأن إحياء ذكرى أساتذتنا فى تخصص المرافعات المدنية والتجارية، بكتابات فى موضوع «التخصص القضائى».

٢٩- أساس حقوق وواجبات المرأة فى ضوء مبدأ سمو القـ الإلهى، بحث مقدم لمؤتمر كلية الحقوق جامعة الإسـكندرية، فى أول ديسمبر ٢٠١٠.
٣٠- مبادئ التنفيذ الجبرى فى قانون المرافعات - دار النهـضة العربية - ٢٠١١.
٣١- مشكلات النظام القضائى المصرى فى ضـوء مبـدأ سـمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١١.
٣٢- مشكلات النظام الدستورى المصرى - فى ضوء مبدأ سـمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١٢.
٣٣- نظام البرلمان المصرى - دراسة انتقاديـة وتـصحيحية - مقالة بمجلة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١١.
٣٤- أسباب تخلف الدساتير العربية - دراسة انتقادية وتصحيحية - مقالة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١١.
٣٥- الدور البيئى والمجتمعى للطالب الحقـوقى - مقالـة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١٢.
٣٦- تعريف الدولة المصرية دستورياً - مقالة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١٢.
٣٧- القوة التنفيذية لحكم التحكيم - ط ٨ - دار النهضة العربية - ٢٠١٢.
٣٨- نظرية البشر القانونية فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١٢.
٣٩- أول وآخر درس فى القانون الإلهى - مقالة - مجلـة روح القوانين (حقوق طنطا) ٢٠١٣.
٤٠- مبادئ التنفيذ الجبرى - دار النهضة العربية، ٢٠١٣.
٤١- النكبة العلمية للمسلمين عرباً وعجماً - دار النهضة العربية - ٢٠١٣.

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٦٦٥٠

ترقيم دولى

978-977-04-7109-8